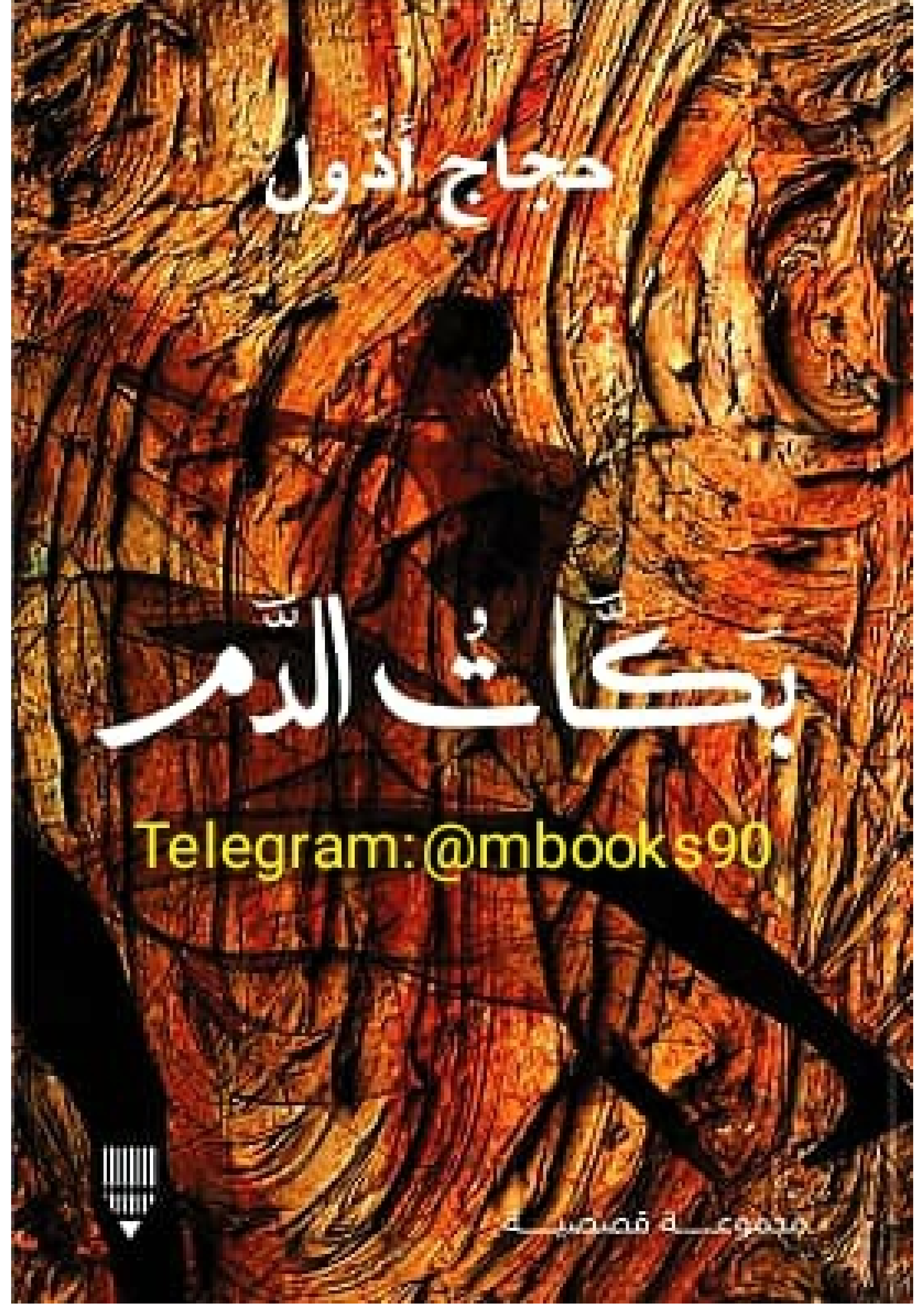

حجاج أدول
بكّاثُ الدّم
Telegram:@mbooks90
مجموعة قصصية

بَكّات الدم

حجاج أدُّول

الطبعة الأولــى : 2023

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

تدقـيق لغـوي : شركة المحرر

إخـراج فنــي : يوسف الفرماوي

رقـــم الإيـداع : 8508/ 2023

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-86639-1-4





شالوم.. هيء

القاذف الصاروخي الخفيف آر. بي. جي على كتفه. وسط دوامة الهدير.. صوّب.. أطلق الصاروخ على الرأس. لم يكن يبعد سوى عشرين مترًا. تلاشى الرأس من عنف صاروخ النار.. ساحت بقاياه فتهاوى الجسد الأبيض وبأسفل الرقبة حواف سوداء متهرئة. أسرع ناحية الجثة.. ركَلها.. وفي صوت قبيح استجمع من مؤخرة حلقة بلغمًا أصفر متماسكًا، بصق على الجثة من عَلٍ. نظر للساقين.. للقدمين.. لمعت عيناه.. جلس.. خلع حذاءه وألقاه.. انتزع حذاء الجثة.. ارتداه.. رفع القاذف على كتفه وواصل التقدم شرقًا مع الكتيبة "ك".

عبد الجواد.. أنت في حقدك شنيع..

الهرولة غربًا في 67. نصف الكتيبة «ك» سحق.. محق.. في الهجوم اليهودي. ومع النصف المتبقي ينسحب شاردًا في صحراء سيناء. لا طعام.. لا يهم. الرعب الأسود أنه لا ماء. وشمس حزيران رهيبة، تنفث ألسنة نار ضوئية. أجساد المهرولين تسخن فتضخ العرق مدرارًا. ومع الأميال الملوية في بحر الرمال المشتعل والتي تمتص العافية بخبث.. تخور الأجساد.. تجف الخلايا.. تجف.. وتجف.. حتى تصطك بعضها ببعض خلال الحركة فتؤلم كأنها ذرات حصى شوكية الأطراف.

وكان عذاب القهر أقسى.. وأقسى..

اكتشفوا الأسفلت. في مجاميع جنائزية ساروا عليه. فهو أرحم وأسهل من الرمال الإسفنجية ويشير للاتجاه الصحيح في صحراء التيه.

في لمحة رعدت السماء على الأرض. علتهم طائرات الميراجِ الفرنسية. رشقتهم قنابل. انفجرت مجاميعهم على الجانبين أفرادًا وأنصاف أفراد.. وأرباعًا.. وأخماسًا وأطرافًا.. أشلاء.. تحوم فوقهم الميراج كالغربان المشيطنة.. القتلى استراحوا. المصابون يصرخون.. يحشرجون.. انبطحت البقية على وجوههم، يدفسون الأجساد والوجوه في الرمال الحارقة.. يتمنى كل منهم أن يتخلل الرمال ويسكن في باطنها كدودة فيختفي عن أعين طائرات الهلاك.. في أزيز وهدير مزلزل تنقض عليهم طائرة.. بعدها طائرة.. وبعدها.. وبعدها.. تغمرهم برصاص رشاشات جهنمية غزيرة، تسطّر على الرمال عشرات من خطوط موت تحدد

مسارها انتفاضات حبات الرمال مع كل طلقة تندفع وتستقر في أغوارها. وعندما تتقاطع خطوط الرصاص السفّاح مع جندي منبطح، يرتج جسده من اختراق الطلقة المحماة في لحمه اليابس ثم وثوبها من أسفله لعمق الرمال.

ابتعدت الطائرات. نهض عبد الجواد، لم ينهض من على يمناه. ناداه باسمه.. هزّه.. ثم رأى الثقب في الظهر.

استمروا في الهرولة غربًا وإن راقبوا خط الأسفلت من بُعد. الليل ستار أمان كئيب. واصلوا السير المؤلم. قبيل الفجر استراحوا بعض ساعة. في الفجر سحبوا أثقال سيقانهم ناحية الغرب. السماء صافية. ليتها كانت مكفهرة فتحجبهم عن جبروت الميراج. الشمس دون تكاسل أو شفقة اعتلت السماء وفرشت على الصحراء شعاع اللهب ليعكسها بحر الرمال، فتعصر عيون المهرولين وتمتص من أجسادهم المنهكة بقايا الرطوبة.

العطش لا يعرف بطشه إلا من اخترق الصحراء دون ماء: رهيب.. قاتل بشع يستلذ بتأوهات ضحاياه الطويلة.. يستنزفهم ألمًا قطرة.. قطرة.. في عذاب لا يدانيه حتى عذاب الحرق.

بقايا الكتيبة «ك» يتحركون كجذوع النخل الخاوية. جففهم العطش. احتلَّ الجسد. تشبث خشنًا في أنسجة الزور والفم فحولهما لبطانة أبلكاشية، والمريء والحلقوم لنتوءات خشبية. تشققت الشفاه واكتوت فأدمت وانفرجت فزعة كاشفة عن لسان جاف، معذب، حائر.. ينقب عن البلل في محيطه فلا ينال إلا احتكاك خشبي، وإن تشمم وتلهف خارج الفم.. صدم بلفحه وفحيح الصهد.

وفي يومهم التالي، وعلى بعد، لمحوا تحركات كخيال سرابي يسبح في شلالات الضوء العاصرة للأحداق. أمعنوا عيونهم الكليلة.. تأكدوا فنشطوا. أسرعوا الخطى ملوحين.. فلما اقتربوا تبينوا أنها عربات مدرعة.. آه.. إنهم اليهود.

قفز بعض اليهود من العربات.. ملابسهم أنيقة. السرور يطفح على وجوههم احمرارًا. عبد الجواد والبقايا شرخهم الإحباط. لكن غريزة البقاء طغت. إن حوصروا أسرى أفضل من الموت عطشًا.. رفع البعض مناديل كاكية علامة الاستسلام.. لوّح البعض بالطواقي في يأس.

التف اليهود حولهم نصف دائرة. صوّبوا سلاحهم. انكمشت بقايا الكتيبة «ك» كالدجاج رافعين الأيادي لأعلى وراياتهم مناديل وطواقٍ مستسلمة.. لكن.. أطلق اليهود النار.. سقط البعض يتلوى صارخًا. زاد انكماش الدجاج وهي تقأقئ وتصوصو. تهاوت جثة على يسار عبد الجواد وفي جبهتها ثقب. إسرائيلية أخذها الحماس.. تقدمت خطوات.. كاد طرف رشاشها يلمس الصدور.. أطلقت النار.. تقلصت أزواج من الأيادي المستسلمة وخارت مع أجسادها أرضًا.

- الضباط ينفصلون جانبًا.

فاجأهم يهودي قمحي اللون ينطق العربية. لكن لم ينفصل الضباط الذين سبق وتخلصوا من علاماتهم.

- أرخوا السراويل.. بسرعة.

في الضحك تجاوب اليهود فوق المدرعات مع زملائهم المترجلين. وبتهديد السلاح أرخى المحاصرون سراويلهم فانكشف اللباس الداخلي عن نوعين: بفتة بيضاء للضباط، عَبَك كاكي رخيص للجنود.

تم فرز الضباط جانبًا. سراويلهم ما زالت متهدلة. قتلوا البعض منهم.

- نحن أسرى حرب.

صاح ضابط:

- اكتفينا من الأسرى.

أجابه اليهودي القمحي.. وأطلق عليه النار.

أمروا الجميع بخلع الأحذية. هنا لاحظ عبد الجواد رغم حالته المترديَة، أن أحذية اليهود أنيقة.. متينة.. وسط هذه الصحراء.. أحذيتهم لامعة. يهودي ضخم ذو نظرة متغطرسة لم يعجبه التلكؤ في خلع الحذاء.. في لحظة أطلق ساقه.. رأى عبد الجواد الحذاء الأنيق يثب ناحيته.. يصيبه في مجمع الفخذين، سقط أرضًا.. يتلوى.. يجأر.. يتقلب في الرمال.. يرتعش كسمكة تشوى حيَة. روحه وخلاصة أعصابه وحواسه كلها تجمعت وتركزت تنصهر داخل خصيتيه المطحونتين. الألم حاد يعصر فيه وينهش. سف الرمال وعضها من الهول. قرقشت زلطة في ضرسه

فكسرته. ترطب فمه المتخشب بسيولة دمه الساخن. لكزه المتغطرس بكعب السلاح. نهض منثنيا وكفاه تكفكفان الصُفْن. ولما ألقى المتغطرس ببصقته الثقيلة، لم يمسحها عبد الجواد من جانب جبينه. يداه ما زالتا بين الفخذين ترتعشان.

اقتربت المجندة المهووسة أكثر من جماعة الضباط. تركت يسراها السلاح. وبكفها الصغير داعبت مؤخرة ضابط وحدثته باحتقار عبري ترجم قمحي اللون بالعربية.. قال:

- تقول لكم.. أبلغوا هذه الرسالة لناصر.

في السادس من أكتوبر 1973، تحت شعاع نفس الشمس الحارقة، اقتحمت الكتيبة «ك» الجديدة وزحفت شرقًا، داست حصون بارليف وأعلامًا ذات نجوم سداسية. وفي صباح اليوم السابع كانوا ينتظرون مدرعات اليهود. أتتهم مزمجرة.. غاضبة.. شرسة.. متغطرسة.. تبث من أسفلها الغبار فيندفع خلفها متصاعدًا في الجو، عصيبًا منذرًا بالويل، تطلق من الأمام دانات مدافعها لتدك الأرض.

عبد الجواد يحمل قاذفة.. ينتظر.. يتعجل الدبابات لتدخل في مدى القاذف.. الأرض تمور من قذائف الدبابات الواثقة. وهو رابض يمسح بكم يمناه جانب الجبين، يراقب بمنظار القاذف حتى دخلت دبابة مجاله. أطلق الصاروخ.. طارت قذيفة النار كنجم مذنب رهيب.. اخترقت دروع الدبابة فانفجرت من داخلها مشتعلة. وثب منها يهودي واحد مرعوب.. راقبه عبد الجواد.. ألقم قاذفة صاروخ جديد. تقدم منه.. تابعه من منظار القاذف.. اليهودي نظرته ليست متغطرسة.. فقط هو مذعور، يرفع يديه مستسلمًا.. تحرك القاذف حتى حشر الرأس اليهودي بين صليبة التصويب.. ألهبها.. فاختفى أعلاها وساح أسفلها.. ولما علا الجثة.. جمع البصقة من مؤخرة الزور وجانب الجبين وألقاها على الجسد المشوه.

عبد الجواد.. أنت في غضبك فظيع..

من حزيران يونيو 67 إلى نيسان أكتوبر 73، سنوات اللاحرب واللاسلم. الكتيبة «ك» منتشرة في صحراء أبي زعبل بالقرب من القاهرة. التوتر يسود كل شبر في البلاد، طائرات الصهاينة باطنها يلقي بأنواع وتشكيلات القنابل فتهدم.. وتكسح.. وتهين.

صباح يوم.. طائرتا فانتوم حامتا.. أفرغتا بطونهما على مصنع مدني فدكته. ثم مرّا على الكتيبة «ك».. لا يباليان بالرشاشات الصغيرة وهي تتكتك عليهما.. ابتعدتا في بطء ودلال وثقة وكأنهما زوج تختروان.

أسرعت الكتيبة «ك» للمساعدة في الإنقاذ. رفعوا أنقاض المصنع. أخرجوا أشلاء العمال.. عشرات وعشرات من جثث لا ترتدي الملابس العسكرية.. مبططة.. محترقة.. متهرئة.. معدومة الملامح.

أصبحت لازمة عبد الجواد، بكم يمينه يكحت الجبين بقسوة وهو متأفف، يعض بأسنانه على لسانه المحشور في خواء ضرس مجّه يومًا مع دماء ورمال. جبينه مع السنين تخشن حاملًا سجاحات الكحت.

تاركًا بقية الطاقم متفحمًا.. قفز الجندي اليهودي من دبابته المحترقة.. يلوّح بمنديل أبيض.. يصيح: شالوم.. شالوم.. لكنك يا عبد الجواد عن قرب.. من عشرين مترًا فقط.. صوبت على رأسه المخبول خوفًا.. ألهبتها بصاروخ مخصص أصلًا لإذابة كتل حديد الدبابات.. تهاوى الجسد المشوّه أرضًا. نظرت إلى الرقبة المتهرئة بحوافها السوداء والتي غاب رأسها وسالت مجاري دموع دهنية على ترقوتها البيضاء.. بصقت عليها.. جلست بجوارها.. جردتها من حذائها اللامع وارتديته.. ثم واصلت الخبب شرقًا.. ألم يقشعر بدنك؟

عبد الجواد.. أنت في انتقامك مريع..

بعد نكبة 67.. وخلال سنوات اللاحرب واللاسلم زار عبد الجواد قريته في إجازات ميدانية. لكن لم ينتفخ بطن زوجته. قالت نذهب إلى الطبيب.. كحت عبد الجواد جبينه ومضغ لسانه وقال:

- لا..

ولما ابتعد.. تحسس الصفن وغمغم لنفسه:

- أعرف السبب..

في الليل هبت زوجته فزعة. الكابوس بركان مكتوم يموج في جسد عبد الجواد.. يعود بأصوات غير مفهومة لها.. كفاه بين فخذيه. نادته.. هزته.. هزته بقوة.

أفاق.. جلس ينهج مبللًا بعرقه يستعيد تهيؤات الكابوس المتكرر: حذاء لامع أنيق يطير للخصية.. البصقة على جانب الجبين لم تمسح فتتسرب وتتخلل وتلتصق بعظم الجمجمة.. الشمس فوق رأسه تمامًا لا تبتعد شبرًا.. العطش كوم رمال في فمه وحلقه.. أشلاء الزملاء.. العمال.. ثم ضابطه يسلمه برقية مقتل طفلته.. تجرع كوز الماء من يدي زوجته ولم ينم.

عادت الكتيبة «ك» إلى شط القناة الغربي. سمعوا وقرؤوا عن مشاريع سلام ومندوب للأمم يحوم. وخلال اتفاقيات وقف إطلاق النار، كان بعض اليهود من الضفة الشرقية يلوحون بأياديهم والسلاح مشهور قائلين: شالوم.. شالوم.. السلام.. شالوم.. شالوم..

طفله كان صغيرًا. طفلته فاطمة شبت وذهبت للمدرسة.

عندما مرت الفانتوم فوق قريتهم الذابلة، حجبت ضوء الشمس لحظة عن المدرسة وأفرزت من جوفها قنبلة شالوم.

موجة الهواء المضغوط هدمت بضعة جدران من البيوت اللبنيَة. نفخت أكوام القش من الأسطح فتناثرت على الطرقات.

رجال القرية في هيستريا خلعوا الجلابيب وعلوا خراب المدرسة، يرفعون الأنقاض وكتلًا أسمنتية وطوبًا وشظايا تخت التلاميذ. أنين وصرخات مسرسعة مكروبة، تتلوى صاعدة من بين فجوات وشقوق الركام الثقيل. وكلما استخرجت جثة بريء مدملجة في بعضها أو مبتورة، يعلو صراخ النساء أسود كملابسهن، ثقيل كالطين الذي وضعوه على رؤوسهن.

عبد الوهاب شقيق عبد الجواد يرفع الهدد ويستخلص الجثث. الصغيرة فاطمة لم تمت حال الانفجار الذي ضرب سقف المدرسة وسخطها. سحبها عمها. مغبَرة، قسماتها ذهول، في عينيها جحوظ وفي فمها خرس، مريلتها الصفراء دمج نصفها السفلي باللحم والعظم.. بالتراب والحصى.. عجن باللون الأحمر. أحست بحضن عمها. رأت دموعه اختلجت مع نحيبه.. نطقت صراخًا، فجاوبتها أمها وبقية النساء في زوبعة.

استخلصوا من أصابعها قلم رصاص أعجف. وقبل وصول عبد الجواد دفنوها..

دفنوا ما وجدوه منها.

لوّح اليهودي بمنديل شديد البياض كجسده. قفز من الدبابة المصابة.. سقط أرضًا.. قام.. يداه لأعلى ملوحًا بالمنديل، يصيح: شالوم.. شالوم.. شالوم يا مسري.

من منظار القاذف المقرب، حاصر عبد الجواد رأس اليهودي المفزوع بين أنياب صليبة التصويب.. أطلق الصاروخ كلهب من جهنم.. أطار جزءًا من الرأس، ساح بعضه كدهن أبيض.. لم ينفجر الدم كأنه فوجئ فانحط لأسفل فزعًا هو الآخر.. الدهن جرى سائلًا مخططًا بالبياض حواف الرقبة المتفحمة.

عبد الجواد.. أنت في غضبك شنيع.

سُرِّح عبد الجواد من الجيش. عاد للفلاحة في قريته. لا يضحك. أحيانًا يبتسم فيجمع فقاعة هواء في صدره ويلفظها محدثًا صوتًا ساخرًا. حتى هذا يفعله وأسارير وجهه متقلصة.. ممرورة.

حملت زوجته. ضحكت حزنًا وأقسمت، ستكون بنتًا ولأسميها فاطمة.

ذهبوا إليهم.. قالوا إنها آخر الحروب.. أتوا علينا.. نبتسم لهم في سذاجة.. يبتسمون لنا في خبث.

في الكنيست لم تستطع تحمل القناع الخبيث.. نزعته.. ضمته على صفحات المعاهدة.. مزقتهم وألقتهم أرضًا في شراسة وغطرسة.

وفي كبرياء وصلف، صرَّح زعيم يهودي أفلج الأسنان، دموي قصير.. قال: لن يكون هناك سلام.. وستستمر الحرب بيننا وبين العرب حتى ولو وقَّعوا معنا معاهدة صلح.

السلام.. أصبحت هذه الكلمة مسيطرة.. منتشرة.. سادت الجو.. لحنوها.. غنوها.. فتجرعناها.

في القرية مقهى صغير به جهاز تلفزيون قديم. تجمع الرجال حوله ذات مساء ليشاهدوا في دهشة التحيات والأحضان والقبلات على الشاشة المتربة بين السلام والشالوم. ينظر عبد الوهاب لعبد الجواد الذي يكحت جانب جبينه ويلوك لسانه في قرف. قال عبد الوهاب بصوت خجول كأنه عورة:

- ياالله.. كفانا حروبًا.

لم يتجاوب معه أحد؛ فكارثة المدرسة ما زالت جاثمة على القلوب. عبد الجواد ترك المقهى وكوب الشاي لم يمس.

بالقرب من القناة في سيناء أتت البعثة.. ضباط يهود وحاخام بطاقية على رأسه الأصلع. صفحة وجهه مغلقة مثل فمه ليكتم شيئًا ما في داخله.

مسحوا كل موقع جرت فيه معركة. يجمعون جثث قتلاهم الباقية. وفي موقع، رفعوا عظام هيكل لقتيل دون رأس. حملوه داخل الجيب.. يبتسمون بخبث للمصريين، لكن الحاخام لم تنفرج أساريره للمصريين أبدًا.. فهو لا يمثل. اختفوا داخل بطن الطائرة العموديَة.

في القرية.. ابنه لم يسعد بشقيقته المنتظرة. زوجته لم تتعزَّ بفاطمة الثانية.. فقد أجهضت وخرج الجنين مبتسرًا.. ميتًا.

عبد الجواد هزل واشتد انقباضه.. يعزق أرضه ويكحت جبينه حتى تشقق وتحجر أكثر من كعب قدمه الحافية. يعض لسانه في خواء الضرس الممجوج. كوابيس الليل وخنق الخصية ازداد. وحيده شبَ قليلًا.. أدمن مشاهدة التلفزيون.. يأتيه في الحقل بالغذاء بدلًا من أمه المريضة.

ظهر يوم جلس أمامه وهو يكشف الطعام ويقول بفرح ساذج:

- أبي.. أتعرف معنى السلام باليهودية؟

نظر إليه عبد الجواد.. لَحَم نظرات عينيه بعيني ابنه الغر. جمع فقاعة هواء في صدره ليلقي لفظه الساخر، لكن سبقه ابنه متباهيًا.

- معناها.. شالوم.

بأساريره الممرورة لفظ عبد الجواد فقاعة الهواء في قرف فخرجت: هيء!

كابوس التمساح وبرج السواد

قُبيل الفجر، اشتد ضيق صدري. تحشرجت أنفاسي، أسحب الشهيق بالكاد. العطش قبضة ملح في حلقي. اندفعت من الملجأ.. أجري على الرمال.. شعرت بالبلل يصل لنصفي.. انحنيت.. رفعت بكفي الماء.. مججته. إنه مالح. زاد عطشي.. عينا التمساح تجوبان ناحية الشط الشرقي للبحيرة. رصدني.. يشق الماء كسهم ناحيتي.. يقترب بسرعة.. تملكني الرعب وقد تبينت حديد فكه العلوي.. خرجت من الماء أعدو صائحًا: التمساح.. التمساح..

جبل مريم رابض على بعد قليل ونُصِب الجندي المجهول شامخًا أعلاه. ساقاه تغوصان في الرمال حتى الركبتين. أستخلص الخطوة بصعوبة.. صعدت الجبل. (الصول) بعوضة ينظر إليّ شذرًا. يمقتني الصول. حرر (أورنيك) الذنب وصاح بي: انتباه يا عيّل.. مارش.. شمال.. يمين.. شمال.. يمين.. للشمال دُر. يوجهني إلى ملجأ الضابط كي يحاكمني.

النُّصب التذكاري يرتفع كيلومترات. تسلقت قاعدته الجرانيتية. تنشق منها مسلتان تتنافسان صعودًا إلى السماء. انزلقت لأعلى.. من أسفل بعوضة يسبني.. يهددني.. وصلت لأعلى النُّصب. ثبّت يمناي على المسلة اليمنى ويسراي على اليسرى. قناة السويس أمامي. شريط بلا لون يدخل بحيرة التمساح. عيناه كشافان دمويان تنزلقان في القناة تترصدان. الخبيث يخفي جسده خلف ساتر الرمال على طول الشط الشرقي، يجوب خلفه بحيث لا أراه، ثم يرفع كشافاه ليرصدني، تختفي عيناه هابطة لينفث الاحمرار من مكان آخر مراقبًا. أريد أن أرى جسده الملعون. من أعلى النُّصب وجهت نظراتي كمسيرة مقذوف هاون. صعدت نظراتي للأمام وأعلى ثم لأسفل متسللة خلف ساتر الرمال. اكتشفت جسد التمساح.. ضخم.. بشع.. ظهره الممتد مغطى بالحراشيف المدرعة. ارتعتشت هلعًا. عيناه الدمويتان اكتشفتا نظراتي.. فتح فكيه.. جوفه رهيب، أشد احمرارًا من عينيه.. أسنانه سناكي شديدة البياض.. حادة.. متناثرة على الأجناب. ارتكز على ذيله الهائل وارتفع بجسده المتوحش نافشًا حراشيفه الصلبة.. يداه ومخالبه أمتار طويلة. طوحهما ليمسكني من نظراتي، فسحبتهما بسرعة بعد أن لمحت بطنه.. أملس ضعيف.. يشفّ عن محتوياته. وكان حسين في بطنه مجزءًا.

عادت نظراتي لمحجريهما. بأسفل بعوضة ما زال يلعنني وهو يتقافز عند قاعدة النُّصب كبرغوث. يشتد غضبه. مزق أورنيك الذنب ولاكه. وثبت لأعلى واستدرت بجسدي. أبدلت قديّ على قمتي المسلتين. واجهت المدى. أنظر لبعيد من فوق خضرة المزارع وصفرة الصحاري. هلال قوس قزح فوق ذراعي مئذنتي قلعة الجبل اللتين تحيطان بعمامة القبة المطمئنة. نظراتي تبحث.. أمسكت بالمشربيّة وخلفها سامية، صحتُ بها: عطشان. حاولتُ التلصص من الثغرات. أغلقت سامية فتحة صدرها الضخم بدلال.. عطشان وملح البحيرة يحرق حلقي. شربتُ جرعة كبيرة من سبيل أم عباس. لوحتُ لسامية وتركت نفسي أطير هابطًا. بعوضة يسبني.. أمسكني من قفاي.. أخرج الأورنيك من خلفه.. مارش.. شمال يمين..

القمر ساطع.. فهيم حكمدار المدفع صلعته خفيفة، تعكس جزءًا من القمر. يمسك بالزمزميّة التي تحولت إلى جوزة وفمه يحيط ببوصة الغاب.. قلت له: لماذا تبكي؟

سبعة شبان من المجندين الجدد. نظرت إليهم. أسلم عليهم بكامل كفي. عندما واجهت الوسيم.. وجدته صغيرًا نحيلًا، ابتسامته رائعة كنجوم السينما. مد لي يده لأسلم عليه.. رأيت يده تتشنج. نظرت لعينيه.. مسبلتين. لم أسلم عليه.. من يومها وهو يكرهني.

القائد السمين يمر علينا قبل مناورة الخريف.. دهشت.. لماذا هو قصير اليوم؟ اقتربت من طاقمنا. لا أسمع احتكاك حذائه بالرمال.. يسير على عظمتي ساقيه. قال: بطن التمساح ضعيف.. سنضربه فيه.. تخطانا. ظهره دون لحم أو شحم.. فقط عظامه.

حسين.. حسين.. يا حسين.. احذر.. كشافات التمساح تراقبك.. تترصدك. لم يجبن حسين. يسبح في البحيرة لاتجاه الشط الشرقي وسلاحه على ظهره. انشق الظلام. ارتفع الفك الحديدي الدموي وانغلق على ظهر حسين وهو يزمجر وهبطا تحت المياه القاتمة.

فهيم يسحب دخان الجوزة.. تزداد حمرة (قوالح) الذرة ثم تزفر الدخان. سألت: لن تفقد أي خليّة من جسدك.. إذًا.. لماذا تبكي؟

البدر خلف ظهره، فبدا لنا (حمام) النحيف كشبح. ضحكت.. من بين فخذيه

شيء يتدلى.. قلت: من المؤكد حمام كان يحوم حول منزل أم سمير.. يجب أن نتزوج بسرعة.. جلس حمام وسطنا. بيمناه سحب من فهيم غابة الجوزة وبيسراه رفع المتدلي من بطنه ليريحه على الفخذ. آه، ظلمتك. إنها مصرانه الغليظ يتدلى من بطنه المبقورة، يقطر دمًا ورملًا.. ضحكنا معًا..

لكن أنت يا فهيم.. لماذا تبكي؟

مسعد يفتش على نظافة المدفع. طابور ذنب.. ارتديت الخوذة وملابس الميدان ثم أمسكت بالبندقية.. فارغة. وتحت الشمس القريبة، وقف الرقيب مسعد الطويل يصيح بصوته المشروخ: سريعًا مارش.. للخلف دُر.. للخلف دُر.. ارقد.. انهض.. ازحف.. وأنا أنفذ الأمر وأرقد وأنهض وأزحف. سبحت في الرمال فتخللتني.. ساعة والشمس مرتكزة على رقبتي.. دخلت الملجأ.. أمي غاضبة.. صاحت: ألم أنهك عن اللعب في التراب؟ دخل علينا مسعد يحمل رضيعته.. تلاعبه وتحاول استخراج الشظية من صدغ أبيها فتلوثت أصابعها اللبنية بالدم.

أمام قطعة المرآة المهشمة، أخرجت أدوات الحلاقة. غطيت جانبي وجهي برغاوي صابون رخيص.. مررت بالموسى على الصابون فلم أجد وجهي. ممسكًا بزجاجة كحول بعد الحلاقة.. أتساءل: كيف أضمخ وجهي وهو غير موجود؟!

برز صلاح من جدار شكاير الرمل خائفًا.. أشار بيده إلى القناة.. التماسيح آتية.. فارتفع كم سترته خاليًا من ذراعه.. أتمعن في مياه القناة الصفراء.. إنهم سرب درافيل مبتسمة يا غبي.

الضابط لملوم وسط الدرافيل يسبح.. لوَّح لي.. قال: الماء عذب لذيذ.. حذرته من التمساح فقال: أنا مرتاح، أتريد رأسك؟ غطس في الصفار.. ابتعدت الدرافيل وهي تبتسم.. ارتفعت يد لملوم فوق المياه ممسكة بجمجمتي.. لكن أين لملوم؟ طرحت الذراع بالجمجمة، وقبل أن ألقفها.. زوبعة ريح قوية حولتها للشرق.. سقطت الجمجمة خلف ساتر التراب الشرقي بين فكي التمساح.. صرخت وأنا أسمع قرقشة جمجمتي: آااه.

بعوضة يجري خلفي.. يهددني.. إن لم تصطد من البحيرة وتعطني ملء صفيحة سمك كل يوم.. سجنتك. أجري منه.. يجري خلفي.. في الرمال قدماي تغوصان

حتى الأفخاذ.. أحركهما داخل ثقل الرمال بجهد جهيد.. صدري يضيق.. طرت فوق جبل مريم وبعوضة يجري خلفي.. أقاوم السقوط.. سقطت على القاعدة الجرانيتية للنُصب.. آلمتني المؤخرة.. بعوضة ما زال خلفي.. أمسكتُ بفرع مسلة.. انزلقت لأعلى.. ثبت قدميَ على القمتين.. شريط القناة أزرق سماوي.. البواخر كثيرة تمخر فيه شمالًا وجنوبًا.. وسط ميدان البحيرة..

الصول يمتطي شمندورة يوجه السفن. كل ربان يدس له (المعلوم) وإلا أخذ رقم سفينته.. نظرت إلى المدينة.. عاد إليها مهاجروها والمصطافون. الشمس عالية.. قوية.. تمساح في الصحراء يجري مبتعدًا.. بطنه مثقوب ويسيل منه نشارة عظام حسين وعظام جمجمتي.

صحت: يا ناس.. يا ناس.. يا هووه.. انظروا إليَ.. لا يرد عليَ أحد. وثبت لأعلى واستدرت بجسدي.. بدلت قدمي على قمتي النُّصب.. نظرة. غيوم.. أين هو هلال قوس قزح؟ أشب على أصابعي لأرى مآذن قلعة الجبل وبينهما العمامة.. أبحث عن سبيل أم عباس.. وأنا أشهق أرسلت نظراتي فخرجت ملتاعة من المحاجر تبحث من قاعدة ضخمة كالحة على نيل أصفر، برزت ناطحة سحاب ذات شعبتين، كلها من رخام وزجاج أسود.

خلال السواد المعتم عثرت نظراتي على سامية المضطربة تختفي أسفل فراش. صحت بها: عطشان.. تهرب مني عارية.. عجفاء.. ليس لها صدر.. من أكل صدرك؟ اختفت.. صعدت نظراتي لسطح قمتي الناطحة تبحث عن سامية. فهيم يمسك بالجوزة المشتعلة.. يسير مخدرًا إلى الحافة.. صلعته ساحت على رأسه حتى الأذنين.. ضحكتُ.. فهيم يقترب من الحافة.. احذر يا فهيم.. ستهوي.. ستهوي.. وثبت لأمسك به.

وأنا أسقط متخبطًا في الشق بين مسلتي النصب.. ألمح بعوضة يأكل أورنيك الذنب ويزمجر.. ارتطمتُ بالقاعدة الجرانيتية.. تدحرجت جثتي واستقرت بجوار فهيم الجالس يدخن الجوزة ويبكي.. ضحكت على صلعته وكرمشة وجهه وفمه الأهتم.. بحزن قال: خلاص.. اتفقنا؟ لا أسألك لماذا تضحك.. لا تسألني لماذا أبكي.

الموت كلبًا

اليوم الأول

كل شيء أصفر كئيب، بحر الرمال حوله والتل حيث نقطة المراقبة التي يحتلها، سلسلة الجبال البعيدة، زيّه العسكري، كسوة خوذته.. كلها صفراء، سيبقى في هذا الصفار السخيف سبعة أيام كاملة قبل استبداله. معه خزين ضئيل من طعام وزمزميتا مياه. مهمته حساسة خطيرة، فموقعه المتقدم بضعة كيلومترات عن كتيبة مدفعيته والمموه ببراعة يتيح له بمنظار الميدان أن يراقب تحركات العدو وينبه إليها. وعند القذف المدفعي لوحدته يصحح لها الزوايا والأبعاد حتى تقع القذائف على العدو تمامًا مستخدمًا تليفونًا حربيًا أخفيت أسلاكه تحت بحر الرمال الصفراء.

عند الغروب أخرج الخطاب من جيبه، قرأه للمرة العاشرة، حين غربت الشمس، تحول الصفار سوادًا فوضع رأسه بجوار التليفون وأخذ ساعة نوم قلق.

اليوم الثاني

من الفجر يراقب ويدون. يتصل بوحدته، ثم جلس مستكيئًا يراقب الصفار حوله بنظرة أشد اصفرارًا. أخرج الخطاب يقرؤه للمرة العشرين.. أحبها.. أحبته.. عاهدها.. عاهدته، ثم جندوه سنين فخانته. كل شيء أصفر، لا يستطيع أن يخرج ليسير بضع خطوات إلا ليلًا خوفًا من أن يكتشفه العدو.

ألقى بمنظار الميدان جانبًا وأمسك بقطعة خبز متحجرة يدفسها في علبة إدام بارد حساؤها متجلط ثم يلقي بها في فمه مجبرًا ويلوك بغيظ. وأتى الليل يتهادى في بطء سمج.

اليوم الثالث

معركة بالمدافع، يتبادل الجانبان نيران الجحيم، هو العين لمدفعية كتيبته، فصحح نيرانها حتى صبت جهنم الحمراء على معسكر العدو فسقطت جنودهم فئرانًا مخبولة يراهم بمنظار الميدان ومنجل الموت.. شظايا مسعورة تتطاير فتقطع في أجسادهم ببشاعة. وفي الوقت نفسه عن طريق التليفون يستمع لصيحات

الفئران تصدر من معسكره إثر قذائف العدو وشظايا الهلاك تمزقهم. إنه تبادل عادل لتقتيل ظالم. وهدأت المعركة.

أخرج الخطاب، خطاب وداع من حبيبة لم تنتظر كما عاهدت، فتذرعت بحجج سخيفة لتبرئ نفسها من الغدر بعهد قطعته ثم مزقته لتسرع إلى أحضان رجل آخر.

اليوم الرابع

لا جديد.. السكون الممل والصفار الجاثم واتصالات روتينية متقطعة. الخطاب في يده للمرة الأربعين، تآكل من كثرة الفض والطي. خائنة.. ترى هل وصل إلى مقر كتيبته خطاب لاحق منها ينفي الخيانة؟ يبلغه أنها داعبته لتختبر مدى حبه؟ السكون القاتل حوله. كل شيء ميت لا يتحرك حتى ولا نسمة هواء. فوق رأسه الشمس معلقة ملتهبة. في هذا السكون تفجر خلف قفاه مباشرة لهاثًا ضعيفًا، هذا اللهاث الضعيف كان في أذنيه هديرًا أرعبه. أطاح ذراعه بقوة ناحية اللهاث وأدار وجهه في لحظة واحدة هلعًا. نال الكلب ضربة الذراع فتجندل للخلف في دوائر ساقطًا متدحرجًا يعوي حتى أسفل التل.

لم يتبين الجندي ما جرى إلا بعد ثوانٍ مخيفة، فزحف على بطنه حتى لا يبرز قامته لأعلى فيكتشفه العدو على خط السماء. زحف حتى أمكنه أن يرى الكلب، سقيمًا مهزولًا وقف بالكاد من سقطته ينظر للجندي في استرحام، لسانه يتدلى وأنفاسه لاهثة. أشفق الجندي عليه.. ترى ما الذي أتى بك هنا؟ أحظك مثل حظي؟ تهاوى الكلب فجلس بإعياء. رأسه ناحية التل ينظر في أسى وعدم فهم.

عاد الجندي زاحفًا لموقعه ينتظر غشيان الليلة الرابعة.

اليوم الخامس

بعد مكالمة الفجر، زحف الجندي ليستطلع أحوال الكلب، وجده قد انطرح أرضًا في نفس مكانه، ضلوعه البارزة تنتفض في رعشة محمومة ولسانه الممدود يهتز على إيقاع اللهاث المريض. غمغم الجندي.. حتى لون الكلب البائس.. أصفر.. غامر وهبط إلى الكلب زحفًا حتى قارب السفح. عندما اطمأن بأن التل يحميه من نظر العدو، سار منحنيًا يحمل شيئًا من الطعام وزمزمية. لما رآه الكلب يقترب منه، نهض بصعوبة وشد قامته في افتعال وأبرز سلاح نابيه، لكنه لم يستطع الزمجرة ليرعب

الجندي المقترب، فعاد إلى الاستكانة وخر يائسًا وأراح رأسه في ضعف على ذراعيه الممدودتين أمامه. رفض الكلب أن يأكل. تعجب الجندي.. هل الكلب مريض مرض الموت؟ أم أنه لا يستسيغ طعام الجنود؟! سكب من راحة يده قطرات مياه على لسان الكلب فلحسها وفي عينيه نظرة أسى وعدم فهم.

عاد الجندي إلى حفرته.. أخرج الخطاب المتهرئ للمرة الخمسين. ستتزوج حبيبتي رجلًا آخر! سترتدي له الفستان الأبيض على جسدها الأبيض، وأنا هنا غارق في الصفار المريض الشاحب.. في عصبية حادة مزق الخطاب وألقاه خلفه. أخرج ذراعيه من حافة الحفرة ومددهما أمامه ووضع رأسه عليهما ونظر إلى لا شيء.. لو استطال وجهه قليلًا لما اختلف عن الكلب أسفل التل.

واستعدى الليل الأسود الثقيل ليستريح من نهار أصفر أثقل.

اليوم السادس

لم ينس الكلب البائس، فبعد أن ارتفعت الشمس واضحة، هبط إلى الكلب عله يوافق ويتناول شيئًا من طعام الجنود أو على الأقل يشرب مياههم الفاترة. الكلب رفض كل شيء. إنه يودع الدنيا في عذاب. استدار جسده حتى تقارب طرف أنفه وذيله، عيناه تنظران للجندي في أسى وعدم فهم. لهاثه أسرع وأوهن، لسانه متدلٍّ في إعياء ولعابه يبلل بقعة من الرمال.. الكلب يموت.. لم تسعه الأرض برحابتها فجاء ليموت في هذا الموقع الموحش.. كيف جاء هنا؟ ولم؟ عاد الجندي بعد أن لملم خطاب الخائنة، في حفرته، جمع أشلاء الخطاب ببعضها في صبر وعاد ليقرأه للمرة الستين.. لا يصدق أعذارها.

تناول منظار الميدان ليراقب وهو يتمتم بكلمات تحرض السواد على الصفرة.

اليوم السابع

صعدت الشمس وبدأت تشتد. أخرج الجندي أشلاء الخطاب، وبعد أن قرأه للمرة السبعين، كوّره بغضب في يسراه، زحف مطلًا على الكلب، لم يعد الكلب دائرة، فقد انفرج رأسه المستطيل قليلًا مبتعدًا عن ذيله واتجه للتل كسهم، فتشكل الجسد الخامد علامة استفهام بائسة. هبط إليه الجندي حاملًا بقية من ماء. وجد الكلب قد مات واستراح. لكن بقيت عيناه زجاجيتين جاحظتين لم تفقدا تعبير الأسى

وعدم الفهم. استدار الجندي وهو يحني قامته ليعود. فجأة انفجرت بالقرب منه قذيفة مدفع رجّت الأرض فانبطح الجندي، هدير صاخب للقذيفة ثم وشوشات حادة من تطاير شظايا منجل الموت تلتها نافورة رمال تثب مكروبة أعلى وتهبط متهادية، تفرش ذراتها غلالة صفراء دائرية في محيط واسع. القذيفة الثانية أقرب. لقد اكتشفه العدو ولن يتركوه. زحف صاعدًا إلى حفرته كالبرص المفزوع. قذيفة أخرى أقرب وأقرب. هرول على أطرافه الأربعة صاعدًا كدابة مرعوبة. وصل إلى قرب الحافة، بينه وبين حفرته ثلاث خطوات فقط ويكون في مأمن نسبي.. يجب أن يكون بداخلها قبل القذيفة القادمة. انتصب على قدميه حانيًا نصفه الأعلى.. قفز خطوتين.. قبل الثالثة والأخيرة ومض برق خاطف وصدمته قبضة كرفسة البغل في بطنه فترفعه رفعًا وتقذفه على مقعدته ثم تدحرجه بعنف إلى الخلف دائريًا حتى سكنت حركته وهو ملقى على جانبه مفترشًا رمل السفح. تناثرت عليه ذرات نافورة الرمل، بدأ يعي ما جرى، تقوس جسده، ركبتاه تزحفان لأعلى في تشنج وألم، ذقنه يضغط على صدره فينحني النصف الأعلى متقوسًا حتى لامست جبهته الملوثة بالرمال وحبيبات الرمل ركبتيه. ألم وحريق حاد في بطنه، تحسس بيديه.. إنها شظية بطول شبر صدمته مستعرضة فمزقت أحشاءه أعلى عظمتي الحوض واستقرت ملتهبة قرب ظهره. القذائف تتوالى والهدير ووشوشة الشظايا ونوافير الرمال. لسعة الحرق مستمرة وآلام عجيبة تتوالد في جوفه، عقله مشلول، الدماء طوفان أحمر يغمر الرمال الصفراء تحته، لا الدماء تتوقف ولا الرمال تشبع. لم ينطق حتى بآهة واحدة. أغمض عينيه مطبقًا جفونه بقوة كأنه يكتم بهما الألم. توقف القذف بعد دهر ممطوط. بركان الدماء هدأ ولم يعد ينفث إلا اليسير، ما زال رأسه منطويًا وجسده متكورًا كأن أعضاءه تستجلب من بعضها أمانًا مفقودًا. بكفيه وأصابعه وأشلاء الخطاب يحاول كتم الدم وسد الشبر المفتوح في بطنه، لكن تلافيف أحشائه تسربت.. يئس.. رفع رأسه إلى أعلى والعرق والرمال الملتصقة بوجهه المشدود نقشت ملامح لكائن مذعور. فتح عينيه.. ينظر.. وجد رأس الكلب الميت مواجهًا لرأسه، ونظرات الأسى وعدم الفهم مصوَّبة عليه.

المرآة

الكلبان متلاصقان من الخلف. الصبية يضحكون في غلظة. الأكثر عمرًا يتجاهلون.. السيدات في خجل أغلقوا الفك وكمموا الشفاه على الابتسامة. المنظر عض على غرائز الصبايا فانفجر منهن الانتباه.. أشحن بوجوههن لكن بؤبؤ عيونهن يكحت طريقه داخل الجمجمة، لينطلق من شرفة الصدغ ليرى ويتمعن.

الكلبان كأنهما مخلوقان خرافيان برأسين.. جانبه القوي يجر الأضعف ليعبر الطريق. الوجهان المستطيلان مفتوحا الفم، واللسانان يتدليان في لهاث. يلتفان حولهما في رعب من السيارات المسرعة. الحيرة تنطق في عيونهما. ماذا جرى لنا؟ ما الخطأ؟ ولِمَ لَم ننفصل بعد الانتهاء؟ طفلان محملان بالأحجار في تحفز ينتظرانهما على الطوار المقابل. كل المارة بين مبتسم وضاحك أو مدعي عدم الاهتمام. ما عداها.. طعنها منظر الكلبين وزاد من اضطرابها. أكيد أن الضخم هو الذكر. بعد أن يفعل فعلته لا يترفق بالأنثى. يسحبها خلفه فاضحًا إياها. سيارة تحدث صريرًا حادًا وهي تتفادى الاصطدام بهما. بصق السائق ضاحكًا.. اتركيه يا كلبة. ضحك من ضحك. تحسرت هي. تخطت الشارع. أصبح الكلبان خلفها. ودون أن تلتفت حذرت.. الأنثى نالت الحجر. فرملة سيارة أخرى.. عواء صارخ ثم صوت ضعيف لتخلل الهواء في الأنثى.. مرقت تجري أمامها وقد تحللت من الذكر. أحجار الطفلين تطاردها مرتطمة ببلاط الطوار.. تسرع وهي تلتفت للخلف في رعب وذيلها بين ساقيها يضمد موضع الألم.

أين الكلب؟ طبعًا ذهب لحال سبيله.. منتشيًا.

دخلت الكازينو. المرآة الكبيرة أمامها. وجهها كظيم. الشفتان مذمومتان.. تكاد تتعثر في نفسها. سوّت شعرها وهي تتجه إلى الركن البعيد المعهود. الثنائيات ذكور وإناث على كل منضدة يتواجهان في هيام مخدر. أطرقت وعيناها تمسحان الأرض وتتابعان خطواتها المرتعشة.. ارتطمت بمنضدتهما حيث كان ينتظرها. رفعت عينيها في كره. شهقت. إنه الكلب القوي. ارتدت خطوة.. وقف مرحبًا فتدلى لسانه ولهث.. تراجعت خطوة.. مد يده.. صفراء مشعرة تنتهي بمخالب. تدحرجت الشهقة من صدرها زفرة رعب. استدارت لتخرج مسرعة. يناديها. وقع أقدامه المهرولة كحجارة تتساقط حولها. الثنائيات عرايا تدابروا والتصقوا من الخلف. تخطت

الباب.

تسرع وهي تلتفت للخلف في رعب.. المرآة الكبيرة.. الأنثى تجري فيها مدبرة يتخللها الهواء، والذيل يضمد موضع الألم.

يوم بكيتك يا فاروق

سقطت على مقعدتي مهانًا، رقبتي تشنجت، لا أستطيع رفع رأسي حتى لا تجري الدموع عند رؤية الصاري.. أتيت ورعد في صدري يصرخ: فاروق مات.. فاروق مات.. رئتان عادتا تتألمان من حبيبات كمد زجاجية تجرح وتدمي. الهموم هادرة والساق خائرة.. تترنح من أكتافي ذراع ونصف، والجسد هزيل.. هزيل.

على الرصيف المقابل للصاري وقفت أنهج مع بضعة أناس.. أتى من يهشنا كالخراف. انكمش الجمع البسيط كالياي، دفعني للخلف فسقطت.

لم أبك يا أعز صديق حين سقطت شهيدًا. حزنت عليك وانسحق قلبي كأن جنازير دبابة تهرسه.. لكن تركت البكاء لهم.. للمهزومين. فأنت لم تمت. أنت المنتصر.. فكيف أبكيك؟ تآخينا سني حرب طوال ثقيلة، الزمن فيها شظايا نحاسية مشرشرة تقطع فينا وهي تزحف بطيئة. تحكي لي كثيرًا ولا تمل من الحكاية عن المنافق الذي تسلط على قريتكم وابتلع أرض أبيك.. نزفنا سويًا دمًا وعرقًا في المعارك الدامية والتدريب الشنيع، فكانت لنا رائحة ألم واحدة. تكومنا في الحفر القميئة فتنفس كل منا في رئتي أخيه هواء عطنًا ملوثًا بحبيبات كمد زجاجية تجرح وتدمي، أجسادنا تبادلت البراغيث والبق والقمل، امتصها نفس الناموس. وحين نسحق حشرة يبرطش منها دمي ودمك.. كنّا في اثنين. ولكن حين سقطت شهيدًا وسال دمي من جسدك.. لم أبكك.. تركت سيل الدموع للمهزومين.

السنون تمر. المنافق الذي ابتلع أرض أبيك فقتله حسرة، يتقدم الصفوف سنة بعد سنة، فيتخثر دمي الذي سال منك وأشعر بميل للبكاء لكن.. لا.. كيف أبكي من مات بطلًا؟ كنت تسبقني في التسلق والنيران تنصب علينا، اعتلينا موقع الجبل الحصين الذي يناهز عشرة طوابق. رأوك تلقي بعلمهم أرضًا.. فقتلوك. تمزقت ذراعي حتى الكوع وسال دمك مني.. فحزنت عليك ونسيت نصف ذراعي الطائرة. لكن لم أبكك.. فأنت لم تمت. أنزلت نجمة داود ووطأتها بحذائك الثقيل.. تركت البكاء لنجمة داود.

القهر طعنني بسونكي مسمم. قلبي الذي هرس يوم قتلت وتبعثر ثم جمع وعاد ينبض، اليوم أتته جنازير الدبابة لتهرسه وتخلطه بطين الطرقات ذرات.. ذرات حتى

لا تلملمه روح إيزيس مرة أخرى. اليوم يا فاروق يغرس في قلبنا صاري نجمة داود.

على مقعدتي، أتنفس بصعوبة، رقبتي تصر صريرًا وأنا أرفع رأسي لأعلى غصبًا. العمارات كأنها جبال وتباب شذبت، بينها عمارة تناهز عشرة طوابق مثل موقع الجبل الذي اقتحمناه وقتلت فيه يا فاروق، مرشوق في يافوخها علم نجمة داود.. يرفرف.

أنسجتي تقصد في جوفي حمم دموع يبجبج سطحها غليًا تكاد تكوي مقلتيَّ وتبصقهما خارجه. جنازير الدبابات تهرس قلبي المهروس. السيارات أمامي تحد من امتداد البصر. الألم في قلبي لا يطاق. تفرقت السيقان. انقطع سيل السيارات لحظة، امتد البصر، حارسان مثلي أنا وأنت أيام الحرب، يشهران نفس سلاحنا، ويرتديان نفس الزي ونفس الأحذية الثقيلة التي وطأت بها على نجمة داود. لكن.. الآن أنا وأنت يا فاروق نحرس نجمة داود.

تهدل رأسي على صدري. رفعت ذراعي فلم ترتفع إلا ذراع ونصف. أخفيت وجهي في خمسة أصابع.. أجهشت.. وبكيتك يا فاروق.

الخرس

لم يُجْدِ في أهل القرية أي علاج، لم يشفع ترتيل الكهنة في إبرائهم من داء الخرس كما لم تشفهم رُقى السحرة. كانوا يتكلمون كأبناء القرى المجاورة، بل كان فيهم مغنون ذائعو الصيت وشعراء مجيدون، فجأة من سنين طويلة أصابهم الخرس. ضرعوا لإله الخير، ضحوا لإله الليل، سجدوا للشمس، بكوا للقمر. لا فائدة. سألوا إله الحكمة وجميع الآلهة. لم يعبأ أي إله حتى بقبول قربان قدموه. وفي معاناة الحياة والخرس الذي غشاهم، لم يسائلوا أنفسهم.. لِمَ؟!

الحياة تسير، الذهاب للحقول، المضاجعة، فالخرس لا يمنع، يأتيهم إله الحصاد بثمرة الحقل وثمرة البطن. والعجب الذي يحير أن الأطفال يتكلمون إلى حين، الطفل لحين الحلم والفتاة لحين يأتيها الطمث فيلحقان بالكبار خرسًا في حياة حزينة. يتشاجرون على أي شيء وفي كل شيء، وإن اضطروا للحديث استخدموا الإشارة، فلا المتكلم أفهم ولا السامع فهم. كل منهم وحيد حتى لو كانوا جميعًا.

تجرأت عليهم الذئاب وشاركتهم الفئران حقولهم ومنازلهم. سرى فيهم الكسل فلا يذبّون الذباب حتى لو استقر على محاجر أعينهم.

يومًا بعد يوم ترهلت سواعد الرجال وبطونهم. وجوه النساء فقدت سماحتها وتصلبت قسماتهن. قلت ثمرة الحقل وتكاثرت ثمرة البطن.

ذات ليلة قفزت صغيرة صائحة: إنها لعنة.. هبوا جميعًا مشدودين يهزون رؤوسهم إيجابًا.. ثم جلسوا. ترى.. هل في أعماقهم يعرفون السبب.. سبب الداء اللعنة؟

ساعة غروب يوم، عائدون من الحقول يسحبون مواشيهم الهزيلة، الحزن غبار أسود يملأ صدورهم من شح الأرض وبخل إله المطر. بينهم فتى أمرد صغير تحمل مسؤولية الحقل مبكرًا لموت أبيه ومرض أمه الراقدة دومًا وحاجة أخته الصغيرة، يسحب بقرتهم الوحيدة العجفاء وقد أصيب بالخرس لدخوله مبكرًا مبلغ الرجال. كالعادة قامت معركة واثنتان خلال العودة. تسمرت أقدامهم للحظات، جاءهم الأطفال مهرولين.. أسرعوا فلجنة المكوس تجوس خلال الديار.

الجابي ضئيل الجسم، نكرة، لكن عينيه كعيني الشيطان، يخرج منهما شعاع

يتجسد جبروتًا طاغيًا، دائمًا خلفه حارسان ماردان كعواميد المعبد الكبير في المدينة المقدسة. عصبة الجابي معها الكثير من الحمالين ذوي الكروش المتهدلة. أزقة القرية تصدر منها أنات استرحام، والجابي يسلب الشطر الأكبر من خزين البيوت بيتًا بيتًا ولا يردعه بكاء النساء ولا بكاء الرجال كالنساء.

جاء دور منزل الفتى لا يوجد ما يؤخذ، نظر الجابي في غضب أشد من أي غضب صبه على أهل المنازل السابقة، عيناه لهيب حارق. توجس قلب الأم الراقدة وطفلها. أشار الجابي للحمالين. صرخت الأم، بكت الأخت الصغيرة، ألقى الفتى بنفسه عند قدمي الجابي. إن البقرة العجفاء كل ما لديهم. ركله الجابي بقدمه، وخرج يتبعه الحارسان الماردان وسط نحيب الأسرة المنكوبة. تشنج الفتى وتتابعت يداه تضربان على صدره وعوى كالذئب.

في مساحة القرية حيث موضع كبير الآلهة المهيب. بدأ الجابي، والحارسان الماردان خلفه، يأمر بحصر الأسلاب وتحميلها على الركائب المغتصبة. بقرة الصبي تخور مندهشة. أما الإله الكبير فضاعت هيبة نظرته تحت نظرة راضية. الخرس يولولون. الأطفال الذين سيصيبهم الخرس صامتون. الرضع لا يصرخون طلبًا لصدور أمهاتهم.

أتى الفتى مسرعًا، شق الصفوف ولا يزال يعوي كالذئب ضاربًا صدره بيديه. تقدم ووقف أمام الجابي ينظر لعينيه، يبادله نارًا بنار. سرت رعشة خوف في جسد الجابي الضئيل.. أشار لحارسيه. وقبل أن يتقدموا كان الفتى قد وضع سبابته اليمنى في عين الجابي. صرخ الجابي. لم ينفجر الدم من عينيه، فأصبع الفتي لم تخرج منها بل واصل هجومه المفاجئ. سقط الجابي أرضًا وفوقه الفتى. جسداهما ينتفضان، الجابي في ألم تعس والفتى في ألم لذيذ. بدأ الحارسان في اضطراب بالضرب على ظهر الفتى بسياطهما. ملابسه تتمزق من على ظهره وكلما تعرى جزء لمعت الخطوط الدموية. عين الجابي ليست قوية كما كان يظن. إنها الآن حول الأصبع قطعة عجين. تصايح أهل القرية الخرس، وثبوا في أماكنهم كالقرود مشجعين. حاول الحارسان حمل الفتى بعيدًا عن الجابي دون جدوى. تلبسته قوة من آلامه وحقده. الخرس فرحون، صرخاته تتصاعد محسوسة ملموسة طيبة على آذان الخرس. عجبًا.. الجابي يتألم! صرخ الجابي: اقتلوه.. اقتلوا الفتى. توقف أهل

القرية عن الوثب، نظروا لسيفي الحارسين ثم نظر بعضهم إلى بعض ولم يتقدم منهم أحد. ارتفع سيفا الحارسين وهبطا، وارتفعا وهبطا ثم ارتفعا وهبطا. ظهر الفتى.. امتلأ بالدماء وسكنت حركته، أصبعه ما زالت في عين الجابي الذي أغمي عليه. الحارسان خلصا عين الجابي فسال دم أسود. أهل القرية يتراجعون خوفًا من انتقام يحل بهم.. وضع الحمالون الجابي المنهوك على دابته الفارهة. اتجهت عصبة المكوس تسحب الأسلاب وبينهم البقرة إلى خارج القرية، والحارسان تتخبط أرجلهما في توتر وينظران إلى أهل القرية في خوف وتخويف.. الصبي ملقى أرضًا. تقدم منه الخُرس ووقفوا على بعد خطوات. ركعت أخته الصغيرة بجواره والدم من جسد أخيها يكتم صرخاتها. أقبلت أمه تكاد تزحف، ألقت بنفسها عليه تنتحب. فتح الفتى عينيه بمشقة بالغة لكن تحركت شفتاه ولسانه في سلامة: أمي.. قتلوني لأنني لم أتركهم يأخذون بقرتي، أصابت الخرس دهشة من نطقه، الفتي يتكلم.. حتى أمه ذهلت وتوقف النحيب في حلقها وهي ترى ابنها يغمض عينيه للمرة الأخيرة.

رقصة الذبيح

قبل تجنيده، كان عبد الله خفيزًا ابن خفير في معابد وادي الملوك. ضخم صامت كتمثال. إن تحدث تَهْتَه ولم يبن. ضحكه قليل، وإن فعلها غطى فمه بكف يده الرحب حتى لا تبرز أسنانه الصفراء المتفرقة. مهيب رغم كونه مجرد جندي أمي ثم عريف ثم رقيب. لهذا عندما ناداه أحد الضباط ضاحكًا عبد الله تحتمس، تمسك الجنود بهذا اللقب وألصقوه به.

عرف في حرب اليمن بالشجاعة. وفي انسحاب 67 بقوة التحمل الأسطورية، لم يترك موقعه إلا بعد أن فرغت ذخيرة قاذفه المضاد للدبابات في تشكيلات العدو، ثم أتلفه وانسحب ساندًا أحد أفراد طاقمه الجرحى. صعد به إحدى العربات الفارة شرقًا. ضربت العربة. حمله على ظهره وعبر به باقي صحراء سيناء وسبح به عرض القناة.

جند صلاح بعد نكبة 67. سمع عن عبد الله تحتمس، وعلى ضفة القناة رآه بسلاحه العتيق يحاور ويناور دبابات العدو الحديثة وينال منها. يستخفه الطرب وفي بادرة الهدوء النسبي يشمر أكمامه للزند، يمسك بطرف عصا ويسحبها خلفه فترسم بطرفها الآخر دوائر على الرمال. يقف، يوجه العصا للأمام ويثني ساقه اليمنى ثم يرفع العصا مشيرًا بها إلى السماء مستكملًا مد ساقه للأمام في بطء وجلال. ويبدأ في رقصة التحطيب، يتلاعب بالعصا في معركة سريعة قاسية يتخللها إيقاع تحفزي مهيب فيخيَّل للناظر أن هناك خصمًا عنيدًا يحاطبه ويتربص به. فإن كان عبد الله تحتمس عييًا باللسان، فهو خطيب بليغ بالجسد الممتد.

سالت دموعه مرة وحيدة. مازحه (علام) صديقه ورفيق رحلة الجيش. أصاب أمه بكلمة قاسية. وما كاد ينهيها حتى كان عبد الله جاثمًا على صدره وهو يغرز أصابعه العشر الكلابية في رقبته. وبعد أن هدأ سالت دموعه وهو يتأسف:

- اطعني بالسونكي يا علام. لكن لا تذكر أمي بسوء أبدًا.. أبدًا.

الغروب. قبل أن يتوقف القطار الحربي بدأ الجنود في القفز وكل منهم حريص على لفافة أو حقيبة صغيرة في يده. اتجهوا لقلب الصحراء. سيقانهم العفية تنتفض في هرولة. متشابهون في أفرولاتهم الصفراء ومزاحهم الثقيل ومرحهم

الملوث بالأسى، وحتى في اللفافات الملتصقة بأيديهم وكلها تحوي طعامًا شهيًا لبقية الزملاء وكمية من بودرة الحشرات لمحاربة البراغيث والبق وطلائع القمل. وهي آخر دفعة إجازات قبل المشروع التدريبي الكبير. الشاذ بينهم هو الرقيب عبد الله تحتمس. لا يحمل لفافة ولا حقيبة. لحق به صلاح. جاراه في سرعة خطواته الواسعة بصعوبة. ودون أي تمهيد أغرق في الضحك والحكي عن آخر أخبار (سامية) حبيبته التي لا يستطيع أن يخطبها بسبب سني التجنيد التي طالت فأفلسته، ولا يعلم أحد متى يأتي الفرج ويتركون بؤس الحياة العسكرية أحياء أو أمواتًا. عبد الله لا يجيب، لا يهم فهو صموت، لكنه حتى لا ينظر إليه! سأله صلاح: ما بك؟ لم يجب عبد الله إلا بهزة رأسه: لا شيء.. استمر صلاح يحكي عن سامية وكيف أنه خوفًا من أبيها يتخابث تارة ويغامر تارة أخرى حتى يراها ويلامسها..

في غبش الليل، تظهر لهم أشباح أبراج المياه الفارغة والبلوكات العسكرية التي لم تستكمل بعد. ثم لاح البياض الباهت للمخيم البائس. المعسكر جديد تأتي إليه وحدات الجيش متتالية للتدريب وعبور الرياح العريض استعدادًا لاقتحام القناة يومًا.

افترق جنود الإجازة.. كل إلى خيمته. عبد الله لم يكد يلقي السلام حتى استلقى أرضًا في مكانه المعلوم.. فراشه مشمع بارد عليه بطانية قديمة. قبل أن يحدثه أي زميل، خلع حذاءه وسحب بطانية أخرى على رأسه. بعد دقائق مال عليه علام سائلًا:

- ما بك؟

من تحت الغطاء المترب أجاب عبد الله بكلمة واحدة:

- أمي..

قبل الفجر، البرد والظلام يجثمان على المخيم. تصاعدت نداءات نوبة الحراسة الأخيرة من كل ركن لإيقاظ المعسكر ليوم جديد من تدريب مضن لا ينتهي. إفطار كالح وكوب بارد من سائل له لون الشاي واسمه. أخذ كل جندي نصيبه من المياه، ملأ زمزمية ولا يعلم حين عودتهم، هل سيجدون ماء آخر؟

وثبوا على ظهور العربات العتيقة بسلاحهم ومعداتهم الكاملة. يتحرك رتل

العربات في رحلة كل فجر بحمولته الثقيلة. تخترق مدقات الصحراء متعثرة في مطباتها فتتلاعب بحشر الجنود على ظهورها فيعيدون قولهم: إن المطبات ملتصقة بإطارات العربات ذاتها. يصل الرتل لشريط الزراعية الضيق حيث يغرق في الضباب فيبدو كأنه وحوش أسطورية غامضة تقرقر وتزمجر من بطونها. على شاطئ الرياح يلفظ الرتل جنوده، ينتشرون في حفرهم يلتمسون دفئًا بالنفخ في أيديهم وإشعال السجائر التي تمر على ثلاثة أو أربعة أزواج من الشفاه قبل أن تصل حمرة النار للفلتر فترمي غصبًا.

وضح ضوء الخيط الأبيض في السماء. طلقة إشارة تنطلق فوقهم صارخة فتنير للحظات. يبدأ التدريب، تبرز القوارب المطاطية السوداء من مكامنها فتلقى في مجري الرياح. يقفز الجنود عليها فترتعش وتتدفع بقوة المجاديف إلى الضفة الأخرى ليقتحمها الجنود.

الشمس تصعد فتدفئ وحركاتهم السريعة تزيدهم دفئًا. وحدات الهاون والقاذفات الثقيلة على عرباتهم تناور. بقية التشكيل الهجومي يسير على هيئة خط ثعباني طويل يزحف بعرضه، فيتقدم منه أجزاء مسرعة ثم تنبطح أرضًا لتحمي أجزاء أخرى تتقدم لتنبطح بدورها. تستمر الوثبات على رمال تمتص الجهد ولا تنتهي. المشاة بأسلحتهم الخفيفة، جنود الرشاشات يسحبون سلاحهم ذا العجلات الرفيعة. أما جنود القاذف المضاد للدبابات فهم أسوأ الجميع حظًا، فسلاحهم ثقيل ويجب سحبه على الرمال الشيطانية وفي وثبات سريعة مرهقة تصفي حتى قوة الثيران. مسافة التدريب بعد اقتحام الرياح أربعون كيلومترًا. طاقم العريف تحتمس يتبادلون سحب القاذف من اليسار وهو وحده يسحب من اليمين رافضًا أن يريحه أي زميل ولو لأمتار قليلة.

إن كان تحتمس هو صمت التماثيل الأزلي، فإن صلاح فمه لا يستريح. مكانه في جماعة المشاة على يمين طاقم تحتمس. وكلما اقترب من طاقم عبد الله، صاح به مداعبًا: اسحب يا جمل اسحب. اسحب لترى نهايتها. ثم ينظر للسماء وهو مستمر في العدو ومستعطفًا: عفوك يا صاحب الخيمة الزرقاء. ثم يسأل في غضب ساخر: أين أنت يا سامية؟ متي يوافق أبوك؟ (يلعن أبوك).

التفوا حول تبة النهدين. الارتياح النفسي غمر الجنود المرهقين. كيلومترات

قليلة يكتسحونها بطلقات (الفشنك) الكاذبة، ثم يصلون إلى جبل (سلامة) حيث نهاية يوم التدريب المريع.

في العودة، تجمعوا في طوابير شبه نظامية.. نزعوا من رؤوسهم الخوذ الحديدية ووضعوا بدلًا منها الطواقي. الأصابع الخشنة تهرش أجسادها إثر تحركات ولدغ الحشرات من تحت الملابس المتسخة. السجائر الوثابة اشتعلت بين الشفاه الجافة التي تضحك وتلقي البذاءات، وتلعن الأيام الصعبة التي أذلتهم وهم أولاد ناس.

انزوت الشمس في الغروب فلانت شبكتها الحرارية. اقترب علام من عبد الله. أشعل سيجارة وناولها له. سأله:

- سلامة الوالدة..

أجاب عبد الله في تهتهة:

- أحضرتها من الصعيد لمستشفى القصر العيني.. الجراحة الليلية وهي تخطت الستين.

- لا داعي للقلق. أختك تسكن القاهرة وسترعاها طبعًا.

أجاب عبد الله في ابتسامة أسى:

- ليلة رجوعي.. ابن عمي وزوج أختي (حسنين) يعمل في أحد الملاهي الليلية، أصر على أخذي معه ليلهيني عن قلقي وخوفي على أمي.. دفعتني أختي دفعًا لأذهب معه. وهناك رأيت ما لا أصدقه للآن. الملهى يسبح في تشكيلات نور باهر كشمس الصعيد. السكارى يشربون خمرًا تملأ خزانات المعسكر الفارغة. بقايا الطعام الفاخر تكفي لإجهاد بطوننا الطاحنة الجائعة لأيام وأيام. راقصات ومطربات خليعات أقرب للعري. لا أعلم لم يرض حسنين بالعمل في هذا الماخور؟! أكيد بهرته جنيهات زائدة عن مرتب الخفير في وادي الملوك.

- إذًا رأيت ليلة من ليالي الأنس؟

بصق عبد الله وسحب نفسًا من السيجارة ثم ناولها لعلام:

- زدت غمًا وهمًا وسط هذا الوكر. صاحبة الملهى العجوز محشورة في لباس يعزي ويجسد. تداعب وتضاحك السكارى فيزيد الطلب على زجاجات الخمر. ثم غثت غنجًا. لم أستكمل ساعة. عدوت خارجًا كما لم أعد في أي تدريب أو قتال. علام.. تعلم كم أكره اليهود.. قتلوا أصدقائي.. أهانونا.. الآن أكره تلك العجوز أكثر.

عبروا الجسر الخشبي.. العربات تنتظرهم بعده. تسلقوها وانحشروا على ظهرها المكشوف فانطلقت في اتجاه المعسكر. حاصرهم الظلام. الهواء البارد يطيح فيهم. انكمشوا وتداخلوا في بعضهم كشحنة من الدجاج.

أتى اليوم النهائي. سيحضر بعض القادة.. الضباط والمساعدون يطمئنون على الذخيرة ويحذرون حتى يتلافى الجنود الإصابة الخطأ، فالمرحلة النهائية سيكون الرمي فيها بالذخيرة الحية.

يتقدم المشروع رائعًا.. الإرهاق أشد.. الجدية والجهد مضاعف، ورغم ذلك تعم الفرحة الجميع؛ فهذا يوم الختام من مرحلة تدريبية مؤلمة. الوثبات سريعة، وكلما مر صلاح بالقرب من عبد الله يداعبه صائحًا، ثم يستجدي الرحمة من صاحب الخيمة الزرقاء، ويسأل كل من يسمع: متى يوافق أبوها؟

التفوا حول تبة النهدين. ميدان الرماية بالذخيرة الحية. تداخلت انفجارات لمختلف الأعيرة: بنادق، رشاشات، مدفعية.. بمجرد انحسار الهدير وضحت صرخات آتية من جماعة المشاة على يمين عبد الله. بقي على انتهاء المشروع أقل من مئة متر. الخط الأفقي مستمر في تقدمه. زادت الصرخات والنداءات. أحدهم ملقى أرضًا ويحوطه اثنان من زملائه. خبر الإصابة ينطلق كتيار كهربي من نقطة المصاب ليسري في خط الجنود الطويل: أصيب جندي إصابة خطرة.. أصيب جندي إصابة خطرة. وقبل أن يصل الخبر لطرفي الخط، لحق به تيار استكمال الخبر: المصاب صلاح.. صلاح.. صلاح..

تصلبت أصابع عبد الله الكلابية على عنق قاذفه. طوى بقية الأمتار ثم ترك أفراد طاقمه يحتلون مكانهم واتجه عدوًا لمكان المصاب. الطلقة الخاطئة في جنبه. زميله يوقف النزف قدر استطاعته. سيارة تقترب من بعيد تعوي مخلفة وراءها غلالة رمال. تبين صلاح وجه عبد الله. حاول رسم ابتسامته. نطق وبصوته تهتهة:

- سأموت.. ليفرح أبوها. لكن، لو مت.. من يتزوج سامية؟!

عادوا إلى المخيم كارهين كل شيء. لا يطيق أحدهم كلمة من الآخر إلا إذا كانت سبابًا للشقاء الذي يعيشونه أو استعداء المنتقم الجبار على من كان السبب في رميتهم المهينة وذلهم الذي طال. ارتمت الأجساد أرضًا. نزعت الأحذية الثقيلة ففاحت رائحة الجوارب العفنة، ولم تتغلب على رائحة الموت الرابضة في الخيام. أقبل جندي يرمق عبد الله في شفقة: الضابط يريدك.

صرخ قلب عبد الله والبرقية في يده. عزاه الضابط في أمه ووعده بإجازة فور عودة الكتيبة لموقعها الأصلي على القناة.

رتل العربات يكركر على الأسفلت بعد معصرة التدريب المركَّز. ظهورها تحمل حشر الجنود، وعلى كل ظهر أعجف صلاح الغائب موجود. الشفاه المتشققة تسأل: أيعيش؟ تهتز الرؤوس إيجابًا. لكن داخلهم يهتز اليقين سلبًا. صلاح وإن عاش سيصبح معوقًا. لن يعود صلاح الباسم أبدًا.. أبدًا. على ظهر إحدى العربات كان عبد الله وعلام متجاورين في صمت. وجه عبد الله حَجَري ساعة زمن. العربات ما زالت تكركر كأنها مصابة بالحمى. ألقى الجنود عبوسهم، يتحادثون، يغبطون دفعة الإجازات التالية. لم ينسوا صلاح.. ولا أم عبد الله، بل تناسوا، تضاحكوا وتبادلوا السجائر الوثابة واللعنات. زملاء عبد الله حادثوه، مازحوه عله ينطق. تناول أحدهم (جركن) المياه وضرب عليه كطبلة رنًانة. توسط آخر ظهر العربة بين زحام المعدات وزملائه الجالسين، وبدأ يرقص على إيقاع الجركن والأكف المصفقة والشفاه تتجاوب.. تي.. تا.. تي.. تا.. من يراهم يظنهم شبابًا فرحًا بفتوته.. سعيدًا..

انضم علام لضاربي الأكف.. دفع عبد الله بكوعه مبتسمًا لعله تنتقل إليه عدوى الابتسام.. حفزه للمشاركة.. لم يستجب عبد الله. اتجه علام بجسده ناحية عبد الله.. جذبه من ياقته.. توقف الرقص وتسمرت الأكف وعلام يصيح في عبد الله:

- سنو جيشنا كلها قتل ودم وغلب. ما الجديد؟ صلاح ليته يموت ويستريح. أمك وإن ماتت فستون عامًا تكفيها. لا نضمن نحن يومًا. إن استسلمنا للحزن سنموت كمدًا.. نتشاغل حتى لا نذبح كمدًا. لنعيش حتى يجيء أجلنا بطلقة.. شظية.. طعنة سونكي.. اترك ذهولك يا رجل.. تحتمس شجاع.. تحتمس شجاع.. أنت جبان.

خشي الجنود من معركة أخرى بين الصديقين.. لكن عبد الله ترك جسده يتطوح بين يدي علام. ثم رد بلسان عيي كأنه يخاطب نفسه:

- كان صغيرًا، إن مات.. من يتزوج سامية؟ وإن عاش معوقًا، فهل ستقبله؟ وأمي.. كانت أمنا جميعًا.. أم القرية كلها.

عاد عبد الله لصمته.. يئس منه علام وبقية الجنود فسكتوا. الشمس أرخت الأجساد.. سلطان النوم غلب بعضهم. البقية تمتص وتتبادل السجائر الوثابة. عبد الله ينظر للاشيء. جالس على صندوق ذخيرة.. ذراعاه على فخذيه ووجهه تغضن فتشبه بأحد تماثيل أجاممنون المشوه.

أدار جندي الراديو الترانزستور.. حلقة من مسلسل غازية قديمة. انتهت الحلقة. المذيعة تقدم الفقرة التالية: أناشيد وطنية غبية ثم أنشودة ابني البطل، فإذا بفحيح صاحبة الملهى العجوز. بدأت شوارب عبد الله في الارتعاش. إذًا فهذه هي أمي! وأم صلاح.. ضحك عبد الله.. قهقه فتشقق حجرا خديه وانفجرت عن فم واسع وأسنان صفراء متفرقة لم يغطها بكفيه. شواربه جنت اهتزازًا. أغلق الجندي جهاز الراديو. ثبتت السجائر الوثابة. أفاق من نعس. الكل صوَّب شعاع عينيه في حيرة على الرقيب عبد الله تحتمس الذي وقف ضاربًا كفًا بكف وما زال يقهقه. أشار إلى المذياع القزم وشمر عن أكمامه للزند. وبكلتا يديه سحب بندقية من مقدم الماسورة كأنها عصا تحطيب. كتم الضحك فانضم حجرا الخد وانغلق كهف الفم. سالت دموع تحتمس سريعة فبللت شواربه المستكينة. وفي إيقاع راقص تحطيب متمرس وجَّه مؤخرة السلاح للأمام، وثنى ساقه اليمنى ثم رفع السلاح يشير لخيمة السماء الزرقاء مستكملًا مد ساقه للأمام. عيون زملائه تراقبه في بلاهة. وجه تحتمس صلد جامد. رغم ضيق المساحة تحت قدميه يرقص في جلال ومهابة وحزن. لم يتجاوب معه أي من زملائه. الدهشة حولتهم أصنامًا مبهمة عندما شاهدوا تمثال تحتمس يرقص ويغني بصوت مشروخ موالًا باكيًا في تهتهته الدائمة: وآدي أم البطل تا.. وآدي أم البطل تي..

بكّات الدم

- 1 -

غابة كثيفة. الجو يشبه الليل رغم أنه نهار. زخم أخضر تتخلله أصوات وصيحات القرود، إلا أن هدير الديناصور الضخم اكتسح كل الأصوات وأخرسها رعبًا. يحطم الأشجار ملاحقًا الآدميين العاريين اللذين يحاولان الإفلات منه. الأول يسبق الثاني بمجرد خطوة. يصرخان وكل منهما لا تفارقه هراوته. يتفاديان الأشجار منطلقين في براعة. لكن كل خطوة من الديناصور الهائل بمئة خطوة من خطواتهما الحلزونية. يقترب منهما وهو يزأر فترتج الغابة بمن فيها. الثاني أحس بوقع أقدام الديناصور وهو يحطم الأشجار. يقترب ويقترب فكاد يلحق به. إنه هالك هالك، دون أي تردد رفع هراوته وضرب بها الأول على أم رأسه الذي يتقافز مسرعًا أمامه. أفلتت الضربة لكن طرف الهراوة الغليظة اصطدم بالظهر فكسر فقرة من سلسلته. سقط الأول صارخًا يتلوى ليدوسه قاتله ويبتعد.

- 2 -

في ظلمة الليل البارد، الثلاثة يثيرهم القلق والتوتر لضآلة الفريسة. يعذبهم الجوع، متلهفون على نهش اللحم الدامي. يتوجسون خوفًا من بعضهم. يشوون صيدهم المهشم الرأس على نار محصورة وسط بضعة أحجار. كل منهم يرقب الآخر. ما يكاد أحدهم يحاول نزع قطعة ليأكلها خلسة، حتى يزمجر الآخران في ثورة فيرتد خائبًا. يعلمون أن الفريسة الهزيلة لن تكفي بطون ثلاثتهم. تناوشوا وزمجروا، انقلب اثنان على ثالثهم القوي، تمكن من الهرب واختفى في الدغل والظلمة بعد أن أثخناه جروحًا. انهالا يقضمان اللحم في شراهة. أيديهما ملوثة بالتراب ودم الهارب والدهن الساخن، عيونهما تراقب بعضها في توجس. فلم تبق إلا قطعة صغيرة من فخذ الفريسة. تيقنا معًا أنها لن تكفي إلا بطنًا واحدًا بالكاد، فزمجرا..

- 3 -

لم تكن قد نضجت عندما اختطفها الضخم. أبقاها في كهفه. يخرج هو ليصطاد. لم تستطع الهرب، فالغابة خطيرة وهي مجرد صبية. يعود قبل الليل معجبًا بفتوته

ومئزر جلد النمر الذي يرتديه، يحمل صيدًا سمينًا وحربته ملوثة بالدماء. أحيانًا يعود مجروحًا، لكنه في كلتا الحالتين يأكل بشراهة ويلقي لها بالجزء الأصغر ثم يطرحها أرضًا.

بعد آلام متعاقبة بدأت تحب عنفه معها، بل تطلبه. أتى موسم الأمطار، ثم ذهب. ثم أتت مواسم الأمطار مرات. أصبح معها أطفال ثلاثة، أكبرهم فتى شب حتى استطاع العدو في سرعة حول الكهف وتعلم صيد الفئران والثعابين.

تلون شعر الرجل بالأبيض وتمزق مئزره وبهت لم يعد قويًا فتيًا كما كان. ذات ليلة، اكتشف أن ابنه الأكبر ازداد طولًا وعريه فضح تحوله إلى رجل. طرده من الكهف في قسوة وشج رأس أمه لأنها حاولت منعه. من ليلتها بدأت تضيق به. يعود كل ليلة إعياؤه أكثر وفريسته أضأل. لم يعد يطرحها أرضًا. تنطرح له فلا يعبأ بها إلا في فترات متباعدة. توترت وكرهت كهفها وازدادت به ضيقًا.

فوجئت بضخم آخر في يده حربة ملوثة. على كتفه صيد سمين وحول وسطه مئزرة زاهية من جلد نمر. دخل عليها والشمس ما زالت عالية. ينظر إليها ويتفحصها ويراقب الكهف في توجس. تتمعن فيه بثقة. يذكرها بالذي خطفها قبل مواسم ولت، وقبل أن يداهمه اللهاث والإنهاك وتتبدل سحنته. الذكر الطازج قوة وفتوة. اطمأن إلى خلو الكهف إلا منها ومن الطفلين. نظر إليها في هدوء فنظرت إليه في هدوء. وضع صيده فأشعلت هي النار، ثم ألقيا الطفلين في ركن فبقيا يراقبان ما يدور صامتين.

بعد الغروب بقليل، وما زال هناك ضوء دموي باهت أعلى الغابة، أتى القديم المنهوك بصيده الهزيل. دخل خطوتين في الكهف. ما كاد يشم رائحة الدسم ويقرأ البسمة الساخرة في وجهها، حتى انغرست في ظهره الحربة لتلمع وهي تخرج من صدره. ابتسمت من كانت صبية، فبادلها الآخر الضحك وهو ينتزع سلاحه من المطروح أرضًا.

- 4 -

اكفهرت السماء. برق يلمع ورعد يفجر أمطارًا شلالية كثيفة. همهمة ودمدمة من الجبل ثم سيول هائجة تهجم على القرية فتكسح أكواخها بمن يحتمون فيها،

تجرف الكل في طريقها، تتدفق في جبروت.

العائلة امتطت جذع شجرة طافية. المرأة في الأمام وفي حضنها رضيعها. الرجل في الخلف يمسك بالابن الذي لم يتعد عمره أربعة مواسم. خليط من الأصوات. هدير المياه، زئير الوحوش، ثغاء الماشية، فرقعات انكسار الأشجار، صراخ أهل القرية والغرق يتهددهم. فوقهم صياح الطيور وبكائيات القرود على قمم الأشجار. ويطغى على الكل، هزيم الرعد المتواصل.

الرجل من الخلف يحاول موازنة الجذع المندفع مع التيار الهائج في جنون. ابنه يتشبث بعنقه خائفًا. ضرب الجذع رأس صبي يغرق فتشنجت ذراعاه في المقدمة رغم ألمه ووهنه. بصعوبة يحاول رفع نفسه ليمتطيه مع شبه الناجين. المرأة بيد واحدة حلت يديه من الجذع ودفعته ليغطس في المياه. أعادت يدها بجانب اليد الأخرى التي تحتضن رضيعها.

الجذع يندفع مع السيل في اهتزازات خطيرة، يتخبط ويرتطم بالأخشاب والجثث الطافية والمندفعة معها. يبدو بطول ذراعين يصعد من الأمام. يعرفون نوعه. لدغة الموت تشنجا بعدها فورًا. فمه مفتوح على آخره: نابان بارزان واللسان المشقوق يرتعش. عيناه المستديرتان شديدتا اللمعة تراقبان المرأة التي أمامه، لا تطرفان أبدًا رغم الأمواج التي تصعد إليه مياهها وتضرب عوده العضلي وتجبره على ارتعاشات أفقية سريعة. والأمطار من فوقه جداول منهمرة تسقط على رأسه المفلطح فيضطر رأسه للارتعاش رأسيًا أيضًا. فحيحه ضائع وسط زمجرة الطبيعة الغاضبة. الأم في هلع تحتضن وليدها بينهما وبين الثعبان نصف ذراع فقط. الخوف هو الراكب السادس معهم. اصطدم الجذع بشيء فارتج كل من عليه. مالت الأم رغمًا عنها للأمام: لمحت الثعبان يثني رقبته ويركز عينيه المرعبتين. صرخت وهي تتكور على وليدها وأم رأسها تهبط على الجذع جاعلة من نفسها شرنقة لتحمي رضيعها. وقعت اللدغة بين منكبيها.. يدها ما زالت تمسك بالرضيع المحمي واليد الأخرى تشنجت وتصلبت على الجذع حتى لا يسقط جسدها في المياه فيغرق الرضيع معها.

في توتر وخوف، الرجل وصغيره يشاهدان الثعبان يتقدم في بطء، وهو يميل يمنة ويسرة. الحطام المندفع حولهم ينذرهم بالسقوط أو التراكم فوق بعضهم في

أي لحظة. الصغير يرتعش من اقتراب الثعبان ويحاول التداخل في جسد أبيه ليجد الحماية. ارتقى الثعبان جسد الأم الشرنقة، ينزع الرجل ابنه قسرًا جاعلًا منه درعًا يتقي به الثعبان.

- 5 -

الظهيرة والشمس حارقة. جميع أفراد القبيلة يجلسون شبه عرايا في الساحة التي تحيطها أشجار الغابة. أمامهم بضعة رجال ضخام بحراب طويلة. يحرسون مقعد العرش. العرش جذع شجرة مجتث عليه قاعدة غير مشذبة من معدن خشن داكن. عند ارتفاع الشمس التي لا يحجبها السحاب يسخن المعدن فيلهب كل من يلمسه. كل من تسول له نفسه التسلل غير أيام الاحتفالات المقدسة، ويجرؤ على الجلوس عليه، يهب منتصبًا من الألم. يتحسس مؤخرته الملتهبة، فيعتقد أن الإله عاقبه. الملك هو الوحيد صاحب الحق في الجلوس على العرش المعظم. والملك ليس شيئًا هينًا، إنه يمتلك القبيلة بأهلها ومواشيها وزرعها وأكواخها، وله أيضًا الأربعون من أجمل نسائها. له دسم الطعام ومئزره من أفخر الرياش ولا يجرؤ على معارضته أحد. الجموع الجالسة تحت لهيب الشمس صامتة في وجوم. ينتظرون نتيجة القلاقل الملكية.

أقبل من ناحية قصره المكون من عدة أكواخ داخل سور له حُرمه. حوله حرسه المسلح، الملك الشاب مفتون بفتوته. شعره كتلة هائلة مكومة أعلى الرأس وقد دهنت بدهن الخنزير المخلوط بروث البهائم ثم أضيف إليه سائل لزج تبكُه شجرة بعد جرحها في ساقها، وعلى كتلة شعره تاج القبيلة، النصف العلوي لجمجمة فيل.

يتقدم الملك مهيبًا وفي يده صولجانه العظمي من وحش مأكول. يقف وظهره للعرش والجموع أمامه انتصبت واقفة ثم ركعت وسجدت وبقيت هكذا حتى يجلس مليكها. الملك في غاية السرور والفخر، فهذه أول مرة سيجلس فيها على عرش القبيلة بعد أن اغتال أباه الملك. جلس. ألهبه القرص المعدني، فخيل له أن إليته تشوى. لكن لم يبد على الوجه الملكي أي تعبير ينم عن الألم.

- 6 -

خرجوا من الأرض التي ضربها الجفاف. دخلوا الأرض المزروعة المتاخمة لهم.

الهزال والإعياء باديان عليهم كلهم.. رجال، ونساء، أطفال، عجائز. أحس صاحب الأرض الأعور. نادى فأتى بنوه مسرعين قابضين على أسلحتهم المسنونة ووقفوا صفًا حائطيًا تشع عيونهم عنفًا وكرهًا. تقدم عجوز من الجوعى العطشى، يضم كفيه أمام صدره وعيناه تتوسلان. طعنته حربة ففغر فاه دهشة وهو يجثو على الأرض ثم ينكب على وجهه ليموت ببساطة. تقهقر الجوعى مهرولين تاركين قتيلهم. زمجرت عائلة الأعور وهم يتقدمون عليهم، فازداد الجوعى هرولة وهم يرفعون من يسقط من الأطفال ويسحبون العجائز المتهالكين. دخلوا الأرض المحروقة جفافًا.

أيام قليلة واخضر الحصاد مرة أخرى في أرض الأعور.. جمعوه. ولما حملوه إلى شونتهم، وجدوا تلال المحاصيل السابقة قد نخرها السوس. ألقوها بعيدًا وخزنوا المحصول الجديد.

مهانة شارد الذهن

يتهمونني بأني دائم الشرود ومُدمِن لأحلام اليقظة، لكنهم يبالغون. في عملي أصبحت باعثًا لسرور زملائي وزميلاتي وهدفًا لفكاهاتهم. وهذا لا يعني بأني موضع سخرية أبدًا.. فهم يحبونني وأحبهم.. أتعثر أنا في نهاية العشرينيات، لم أتزوج بعد.. آه.. هنا بيت القصيد، لم أتزوج بعد، قطعًا لم أصبح عانسًا، فأنا رجل، ثم إني لست بقبيح، بالعكس أنا وسيم، وبشيء من الحظ سأكون فتى الشاشة الأول.. في ديوان عملي زحام من العاملين رجال وسيدات. صراحة أصبو إلى الإناث طبعًا. هل هذا خطأ؟ لا أظن، فأنا كأي رجل تهدر في دمي تيارات عنيفة، ولم أتزوج بعد..

إذا حدثتني زميلة وأطالت، لا أشعر بها إلا كأنثى.. أنثى فقط، لا أرى سوى شفتين تنفرجان وتنطبقان ولكني لا أسمع صوتًا. أذهب بمحدثتي في شطحات خيالية بعيدة.. أفيق على قهقهة زملائي وزميلاتي وتعليقاتهم: عاد لشروده! احترسي منه يا فلانة فإن نظرته خبيثة، ثم تعقيب رئيس القسم: (ما دام كبرت خلّي أبوك يجوزك) دائمًا يكرر هذا القول السخيف، وحين أدافع عن نفسي بأني لم أكن شاردًا يكون الرد: إذًا ماذا كانت تقول لك؟ ولماذا لا يشرد ذهنك إلا إذا حدثتك أنثى؟ يا لئيم! أُحاصر.

اتهمت ظلمًا بأني تماديت في شرودي وكدت أطبع قبلة على خد فتاة من زميلاتي! ربي.. هل تملكني الشرود إلى هذا المدى؟

حدث يومًا، زميلة صارخة الجسد، وقفت بجواري وأعطت ظهرها لي، تحادث أخرى تحتل المكتب المجاور، مالت بجسدها بحيث واجهتني عجيزتها الضخمة، ولما كانت منشغلة في حديثها الذي طال وهي تدوّن ملاحظات وتقلب ملفات فقد كانت عجيزتها تتمايل يمنة ويسرة كأنها قرص رادار ضخم لا يلتقط سوى دقتي عيني المتابعتين، تصاعدت الضحكات أكثر حتى استدارت العجيزة عن وجه غاضب أرسل إلي عبارات قاسية، تنبهت لموقفي، أحرجت لساعة، لكن مر اليوم بسلام ومرح حتى إن السيدة صارخة الجسد نفسها ضحكت بخجل أولًا ثم دون خجل.

حدث شيء عجيب مع الأيام، فقد أصبحت أنا في الديوان كله مقياسًا لمدى

أنوثة كل أنثى فيه، فالتي تحظى بنظرتي الشاردة أنوثتها أعمق. من خطفت بصري بسرعة فهي اليوم أجمل. وتلك فستانها أحلى وهكذا. لا يضايقني سوى رئيس القسم في قوله المتكرر الممجوج: (ما دام كبرت خلي أبوك يجوزك).. سخافة.. كيف يتزوج موظف؟ أسكن وعائلتي في شقة تشاركنا فيها عائلة أخرى، أملك القليل جدًا في زمن سُمّي فيه الألف من الجنيهات بالباكو، والمليون بالأرنب وأبي لا يكاد يدبر عشاء إخوتي الصغار.

في يوم عصيب لا ينسى أهنت إهانة بالغة. بعد العمل اتجهت لأستقل الأتوبيس، اقتربت من العمارة الجديدة التي أتابع نموها يوميًا، كادت تكتمل اثني عشر طابقًا، صاحبها رجل غليظ لا يكبرني إلا بسنوات قليلة، دائمًا يرتدي بدلة كاملة دون ربطة عنق، أجش الصوت، يتحشرج صدره بصوت مسموع حتى وهو جالس في مدخل عمارته.. آه.. كثيرًا ما راودتني أحلام اليقظة بأني حصلت على شقة في هذه العمارة، وأن هذا الجلف الغليظ أعطاني شقة مقابل بضعة بواكٍ افترضت أني أملكها! أحلم أنه رق لحالي ورغبتي في الزواج فوهبني شقة دون خلو.. هأ.. مرة واحدة حلمت بهذا، ولم أكرر الحلم، فتكوين هذا الثور الغليظ سحق حلمي وأطاره بحشرجة صدره.

في هذا اليوم المؤلم إذا بفتاة بيضاء جميلة أمامي، ذات شعر أصفر قصير يهتز كما يهتز بدنها فيتقافز قلبي ويشرد ذهني. تسير جادة، لكن جسدها ليس جادًا، فاهتزازاته خطيرة، جمالها يلهب، ترى.. هل سأتزوج يومًا؟ ضايقها صاحب العمارة الجلف عندما مرت من أمامه وهو يحشرج على مقعده. مضت الفتاة وأنا خلفها، كان طريقنا واحدًا حتى وصلنا لمحطة الأتوبيس، وقفنا بين الزحام. لا أرفع عيني عنها. وأتى الأتوبيس زحامًا، صعدنا إلى الزحام. دفع ولكز ووطء أقدام على أقدام، رائحة خليط العرق، محطة واثنتان وإذا بي أقف خلف الشقراء الجميلة، لم أقصد الحصول على هذا الوضع الرهيب، لكن كان أن حصلت عليه! ما أجمل جيدها. شعرها القصير ترك أجمل عنق رأيته عاريًا، ناصع البياض هابطًا في انسياب ساحر ونداء عميق ليخفيه رداء شفاف. أشعر بجسدها، الزحام يشتد والحشر يتضاعف أكثر وأكثر، ثم لا أشعر بحشر ولا شيء. أشرد تحملني سحابة وردية. أراني أملك شقة في عمارة الغليظ وأتزوج تلك البيضاء التي ألتصق بها تمامًا. أشعر بلذة ودفء ساحر. سعيد أنا بزواجي وزوجتي. أستيقظ صباحًا فإذا بزوجتي الجميلة

أمامي تبتسم لي، تودعني وأذهب لعملي، أعود سريعًا لها، إنها تنتظرني، أعطتني ظهرها في دلال، غاضبة فقد تأخرت عليها دقائق. ما أجمل عنقها! لا أستطيع أن أتركك غاضبة يا شقرائي الرائعة.. أقبلك قبلة مصالحة أحتضن ظهرك الرقيق.. جيدك الناصع يجذب فمي إليه.. كم أنت جميلة.. نفرت زوجتي من يدي.. صرخت بقوة.. التفتت إلي في قسوة، عجبًا.. أقادر وجه زوجتي الجميل على حمل كل هذا الغضب القاسي؟ يا مجرم! يا سافل! ما هذا؟ أتلعن زوجها؟ اختلطت تركيبات الصور الذهنية في رأسي.. يا ربي.. هوت على صفعة منها، ثم بصقة.. صفعة أخرى من راكب.. أنا لا أحلم ولكني أتهزأ. تتوالى الصفعات.. سأدافع عن نفسي.. أسأل البيضاء: ما بك يا آنسة؟ زادت الصفعات وارتفعت اللعنات وأنا في وجوم. وبين كل هذه الصفعات هوت لكمة كأنها ضربة مرزبة على رأسي.. هزتني اللكمة بشدة فلم أعد أرى، وإذا بي أعرف صاحب اللكمة المرزبة من صوته.. إنه الغليظ صاحب العمارة! من أين أتى؟ وأين سيارته الفاخرة؟ حشرجة صدره تقترب: أوعى يا جدع، قالها الغليظ، أعطاني لكمة أخرى من نفس النوع. لا أستطيع أن أقاوم ركاب أتوبيس كامل وبينهم هذا الثور الغليظ. أتأوه وأضع صفحة وجهي بين كفي، يقل وعيي ويتراخى جسدي لكني لا أغوص فكثافة الحشر تعلقني شبه متدل. لم أعد أسمع لعنات، فقط لكمات وصفعات كأنها قرعات على طبلة مشدودة جلدُها جلدي. ثم تهبط لكمة الثور الغليظ كأنها عمارة تسقط على شخصي المتهالك. لكمات وصفعات.. ثم عمارة أخرى تسقط مع هبوط يد الثور.

تخف عني الضربات وأتسمع صراخًا يردد كلمة: حرام.. حرام.. حرام.. تتكرر بصوت السيدات ثم الرجال، الآن أرفع من كل جانب لأنتصب واقفًا ثم أدفع ناحية باب الأتوبيس.. هل سيلقونني من الأتوبيس وهو ينهب الأرض؟ يا خوفي! هل سأتحمل إلقائي وأنا بهذا الضعف؟ الأتوبيس يتوقف، رجل عجوز قوي نوعًا يساعدني في الهبوط.

أستند على الحائط منهوكًا، العجوز بمنديل يمسح وجهي. أشيح بوجهي عن منديله الذي تلوث بالدم وأنظر إلى الأتوبيس وهو يبدأ في التحرك. أتبين البيضاء والثور الغليظ يقف خلفها في مكاني المفقود تمامًا.

العجوز يحادثني: أأنت بخير؟ الحمد لله أنك خرجت سليمًا، لكن.. لكن لم فعلت

ذلك؟ «مدام كبرت خلي أبوك يجوزك». صدمتني جملته.. نظرت إليه، ضحكت، انفجرت في الضحك. العجوز يراقبني مندهشًا وأنا أضحك، يضرب كفًا بكف، يبتعد وهو يحادث نفسه: أكيد عقله غير سليم.. وأنا أضحك ودموع من عيني تسيل وتختلط بلون أحمر يسيل من أنفي وفمي.

الهرم المقلوب

مع اقتراب «الأتوبيس» الصحراوي من مشارف القاهرة، تثاءبت ألعن الروتين الذي اضطرني للسفر للقاهرة لمجرد إجراء سخيف. لحقت بأول «أتوبيس» قبيل فجر اليوم، أما زميلي فمن المؤكد أنه سيكون في أعقابي. مرت ساعات وأنا أغالب النعاس ويغلبني. هضبة الهرم ستبرز الآن. أتوق لرؤية أهرامات الجيزة الشامخة بعد معايشة جلال الصحراء اللامحدودة.. لم أنم الليلة الماضية خوفًا من عدم لحاق هذا «الأتوبيس» المبكر.

أرى الأهرامات الآن، جرمها صغير عن بعد وكأنها تسبح في الأفق الباهت، نقترب أكثر.. أنظر.. أنظر بإمعان، أدقق النظر، شيء عجيب.. أين الهرم الأكبر، يا حول الله، الهرم ضاع! الهرم يا ناس؟ الركاب لا يبالون بصيحتي. شعرت بالحرج لحظة، لكن لا.. أين الهرم؟ يا سادة.. انظروا معي وارتعبوا.. مصيبة.. أين الهرم الأكبر؟ لا مجيب.. يعود بصري للهضبة، أرى هرمين فقط يا بشر، هل وصل الداء للهرم؟ عندما انحرف الأتوبيس يسارًا ليتجه إلى قلب القاهرة رأيت الهول الذي لم يحرك أبا الهول ولا الركاب. الهرم الأكبر ملقى على جانبه بميل خطير، قمته تتجه لأسفل وقاعدته الشاسعة لأعلى وكأنه سيستكمل سقوطه من الهضبة في أي لحظة. وقفت متصلبًا أنظر للركاب وأشير بيدي الاثنتين إلى الهرمين وكبيرهما الساقط، ثم نطقت بصوت يخرج ممطوطًا كأنه قطعة لادن ساخنة: الهرم مقلوب.. الهرم مقلوب. لم يلتفت أحد.

اتجهت عدوًا ناحية الهضبة أنظر للناس، كل منهم في سبيله. ألا يرى الهرم المقلوب غيري؟ تصادمت مع شرطيين من درك الأمن يسيران ويحملان قدرًا قبيحًا كبيرًا مملوءًا طعامًا، صرخت فيهما: الهرم مقلوب!! الهرم مقلوب!! لم يكلف أحدهما خاطره بالجواب وواصلا السير. خلفهما شرطي آخر يحمل على ظهره كمية عظيمة من الخبز يصرها في بطانية بالية.. الهرم مقلوب يا شاويش!! انظر؟ فأجاب وهو يواصل سيره دون أن ينظر لا إليّ ولا إلى الهرم: ليس عهدتي. واصلت العدو، لن أسأل إنسًا ولا جنًا.. أقترب.. الهرم ضخم، ضخم. قمته المدببة كأنها سهم خرافي موجه إليّ. أقترب أكثر من حافة الهضبة الذهبية. أدركت السبب عندما وجدت نفسي وسط مئات من العربات البدائية، وكل منها يسحبها حمار

هزيل ومكاري ممصوص كأنه رجل مجفف. العربات حول حافة الهضبة المتآكلة كالنمل حول كعكة أسطورية، وعشرات رجال عراة من نحاس يغترفون الرمال من الهضبة بمجفات طويلة عريضة ويصبونها على العربات القبيحة حتى تمتلئ فيسحب المكاري حماره.. شي.. حا.. فتحتل مكانها غيرُها. صحت وسط حشد السوس: حرام.. حرام.. الهرم كاد ينقلب تمامًا. لم يبال بي أي مكاري ولا أي حمار. اندفعت لأحد الرجال شبه العراة، أمسكت ساعده لأمنعه لكنه كان أقوى مني، لم أستطع وقف هبوط يده بالرمال كأنها ذراع باردة من الصلب لآلة ضخمة. عدت لجموع السوس.. إنها تتكاثر. عدوت لأعلى. ارتقيت صخرة ونظرت حولي. أما من مغيث؟ لمحت على بعد قصرًا. أسرعت تجاهه، ألهث وسط الرجال المجففين وعرباتهم وحميرهم. الحمير تنهق وتدفع بولها بقوة فيصيبني الرذاذ. أعدو، أعدو فإن الهرم يشير إلي ويكاد ينقلب. وصلت القصر.. تخطيت الباب إلى باب، من صالة مرايا لصالة مذهبة ثم صالة زجاجية أنيقة تتوسطها طاولة معدنية عليها خارطة هندسية حولها رجال وسيدات ينظرون للخارطة، لم يرفعوا أعينهم عنها. أنظر إليهم غاضبًا، صدري يتحشرج، العرق يللني من أعلى ولزوجة بول الحمير على ساقي، تمعنت في وجوههم بدهشة، أعرفهم، فصورهم رسخت في ذاكرتي مذيلة بألقابهم الفخمة، اقتربت، أقربهم لي يخاصر راقصة عجوزًا بيد والأخرى تمسك بكأس خمر تقدمت للطاولة وفرقت بين يده والخصر، الخارطة تحت أنفي، تصور هضبة الهرم في خطوط مختلفة ألوانها، دائرة حمراء على الهرم الأكبر ورقم واحد باللغة الإفرنجية، أقرأ.. شركة مساهمة وتوكيلات، محاجر، تقسيم أراضٍ. صحت: تبيعون الهرم؟ هرمي؟ لم يجيبوني. الاقتصادي المشهور يشير بعصا أنيقة إلى موقع الهرم ويبتسم، يتكلم دون أن يحرك شفتيه: مكسبنا عن كل متر مكعب من الرمال قروش قليلة، لكن مع عظم كتلة الهضبة سيكون المكسب معقولًا. استمر كأنه يلقي محاضرة: والهرم عندما يستكمل سقوطه سيكون مكسبنا عظيمًا من بيعه أنقاضًا. ملاهي شارع الهرم تتكاثر سرطانيًا ويمكن أن تبنى بحجارة خوفو، جذبًا للسياح طبعًا. حنجرتي كأنها ستهدر إعصارًا. لكن صوتي يخرج متثاقلًا ضعيفًا من بئر صدري.. أتبيعون الهرم؟ لا مجيب.. ذراع قوية أمسكت بي من الخلف، أنظر للذراع.. طولها أمتار، تنتهي بوجه حليق مخفي تحت «الكاب» العالي. سحبني فامتدت اليد للخصر الأعجف. خرجت من المكتب مسحوبًا بعنف. قلت

في توسل: حضرة الضابط.. الهرم سيباع أنقاضًا! فتكلم وخرج الصوت من إصبعه الوسطى: عندنا غيره، ثم ألقاني خارج القصر. سقطت بجوار إطارات عربات فاخرة. تساءلت: أحقًا ما يجري؟

اتجهت الحافلة لداخل المدينة.. مرت ساعات طويلة كي نعبر شارع الهرم بملاهيه الضاحكة.

نسيت كل ما جرى في ديوان الوزارة. حصلت على الإجراء المطلوب. أثناء اندفاعي خارجًا للعودة إلى الإسكندرية، تصادمت مع شاب يهرول داخلًا. نظر أحدنا للآخر.. إنه زميلي.. صدره يتحشرج، ينضح عرقًا ورائحة بول. قال: ألم تدر أن الهرم الكبير مقلوب!! قلت.. عندنا غيره.. تركته وأسرعت لألحق بأي من وسائل المواصلات التي تجوب الطريق الزراعي بعيدًا عن الطريق الصحراوي وهضبة الهرم!

شارة الحداد

الجدار كالح مطلي بالجير. لونه القديم متداخل في ألوانه الأحدث، وآخرهم الأصفر الشاحب.. ورغم شروخ عقدين من السنين، لم يدهن الجدار مرة أخرى. وفي رطوبة الحجرة، العينان الكليلتان لا تريان إلا سواد الشارة.

على الجدار الشائه والمتساقط جلوده الباهتة، صورة أبيض وأسود لوجه بيضاوي أبيض. اسودت سوالفه وحدقتا العينين. الأبيض أسنانه وضحكته. الأسود إطار الصورة. الأسود كاب عسكري قابع على رأسه، والأسود شارة حداد مائلة تعض قابضة على الضلعين العلوي والأيسر للإطار.

أسفل على الكنبة، عجوز بدينة ملقاة. شحمُها شاحبٌ متورم. وجفن أحمر متورم. مغطاة بلحاف متهرئ وبطانية كالحة. ظهرها خائر على مسندين ممزقين. طعنها تيار الهواء الذي شرخ شيش النافذة. ارتعشت. سعلت سعلتين، وفي خرقة داكنة بصقت بصقتين ثم مسحت فمها.نظرت إلى الشيش المهيض. التيار البارد ينفلت من خلاله ويطعنها كنصل مثلج. مدت يدها لإغلاقه فلم تطله. رفعت رأسها تنظر إليه. من تحت الشارة السوداء، ضحك لها ضحكة بيضاء. نكّست الرأس ومسحت دمعتين.

تقازم

أتقلب في فراشي، أحاول رفع جفني لأتخلص من الهلاوس.. مزَّق الصداع رأسي من صرير المقعد، تسحبه طفلتي كل صباح، تصعد عليه وتدير المذياع لتسمعني نشرة الأخبار. ومثلما حدث مرارًا من قبل، أضم كفي بقوة على جانبي أعلى الرأس لأكتم فورات الصداع.

المقدمة الموسيقية صارخة. اقشعر قلبي وموجزها المنذر يرهبني. أكاد أجزم بأن يومي هذا لن يكون طيبًا. تكدرت من حروف البؤس التي تخترق أذني. احتضنت ابنتي وقبلتها. ما زالت نحيفة. أشفق على أيامها القادمة. اتجهت للخروج. مددت يدي للباب، مقبضه علا قليلًا. كدت أتعثر على درجتَي السلم الوحيدتين، زادت هواجسي ثم تأكدت داخل حشر الأتوبيس. حاولت الإمساك بعمود السقف، لم تصل إليه يدي. العرق بللني من خنق الزحام ومن الحقيقة المرعبة.. أن جسدي ينكمش.

المستشفى العام. الطابور معتل. يذوب من أمامي وينمو خلفي سرطانيًا. طبيبنا مسلول لا يرفع رأسه من مكتبه الصندوقي ليرى مرضاه. فقط يخط العلاج على ورق الصحف المشؤومة. يمزقها ويناول قصاصاتها للمريض ويشير له ليبتعد. ناولني القصاصة. صرخت.. إني أنكمش! نظر إليّ الطبيب أخيرًا. عيناه بائستان. ألقى القلم الرخيص ووثب على كرسيه ثم اعتلى الصندوق.. كان قزمًا. أشار إلى امتداد الطابور خلفي وصاح بي.. لست وحدك. التفتُّ.. ذهلت.. الطابور كله أقزام شائهة.

أمسكت بقارورة الدواء. عقلي ينوء بالمصيبة. جثم الليل البارد عليّ. أتسكع في الشوارع الممطرة مرتجفًا. كلما غلبني الإرهاق أثب على مقاعد المقاهي وأنا ألهث. مرَّ منتصف الليل. زادني البلل رجفة. اتجهت للعودة غصبًا. أسير وحيدًا. قزم بائس.. خطواتي قصيرة مرتعشة. أتهيب العودة. الحسرة تملكتني. قذفت زجاجة الدواء أرضًا فانفجرت. قبل أن تنتهي زفرة الضيق من صدري، إذا بكف خشنة قاسية تتشنج قابضة على تلابيبي. نظرت.. جدار من ملابس سوداء. حذاء ضخم يعلو لقرب ركبتي. أنظر لأعلى.. شرطي كث الشارب، غاضب الوجه. ارتعشت من شرر عينيه. لم يتحدث معي. أشار بامتداد ذراعه الطويلة وإصبعه

الضخمة إلى شظايا الزجاج المهشم. استعطفته. فإذا بيده ترتفع حتى لم أستطع أن أرى مداها، ثم تهبط بعنف وصفير فترتطم بقفاي. ارتج جسدي واندفع للأمام ولأسفل. لم أسقط أرضًا لأن يده الأخرى ما زالت ممسكة بي. تداخلت في بعضي. أصبحت معلقًا في كلاباته أبدل وأرفس بساقي في الهواء صارخًا. رفعني لأعلى كحشرة. أصبحت في مرمى كشافات عينيه المريعتين. قاس قامتي. تأكد من معدل انكماشي. ارتاح وجهه في رضا. ألقاني. قدماه تبتعدان في دوي ورتابة كأنه سيخرق الأرض.

نهضت من بركة المياه. تسلقت الرصيف. أحلم بدفء الفراش. أسير وسط المنازل الجوفاء العملاقة. أرعبني صرصور يجري بجانبي. شاربه لسعني كسوط في ساقي. ساعات أسير مهرولًا. الفجر يشقشق بالعصافير. أقترب من منزلي. فأر ديناصوري يتشمم كومًا من أكوام القمامة. حتمًا أنا فريسته. لمحت مسمارًا عملاقًا بجانبي. ألتقطه بيدي. قبل أن يصل الفأر إلي.. هجمت عليه صائحًا طاعنًا بالمسمار. هرب. لم أصدق النجاة. المسمار ثقيل على يدي. ألقيته وعدوت مسرعًا أدعو أن أصل منزلي قبل أن يعترضني قارض آخر.

دلفت إلى منزلي. أمامي درجتا السلم كالجبل المركب. قفزت لأعلى وأمسكت بحافة الدرجة الأولى. صعدت وقد قاربت قواي على الانهيار. أسترد أنفاسي قليلًا. قفزت وتشبثت بالدرجة الثانية. رأسي وكتفاي أعلى الدرجة. ضوء شقتي متدحرج من أسفل الباب يشع على البلاط. أحاول التسلق ببقية جسدي. ساعداي تخاذلا.. أنفاسي مضطربة.. أحاول وأحاول حتى أرعشني صرير حاد سرى في الأرض كالكهرباء. صرير المقعد وطفلتي تسحبه لإدارة المذياع. أكاد أسقط وساقاي تضربان في الفراغ بين درجتي السلم.. توقفت محاولاتي.. المقدمة الموسيقية لنشرة الأخبار تطن.. سكنت حركتي.. أرهفت أذني لأسمع نشرة الأخبار الجديدة.

نشرة جوية

ممسكًا بعصا معدنية أنيقة، وخلفه عدة خرائط وصور للكرة الأرضية. ابتسم قارئ النشرة الجوِية، قال: سيداتي آنساتي سادتي. أقدم لكم النشرة الجوِية وتوقعات الغد..

كرة معدنية باردة معلقة في أعلى الفضاء للاتصالات السرية. في رهبة وصمت تتلقى الخفايا وتوزعها بالشفرة بين الأطراف..

- نحن نكفيكم خطورتهم.

- أتستطيعون محو دعوة المقاومة؟ وقبل الفجر؟

- قبل الفجر نكون محونا مقاومتهم نفسها.

- ونحن علينا قذفهم بالمساحات الإلكترونية فنمحو رؤوسهم ذاتها.

- منتصف الليل موعدنا.

- ونصلهم قبل الفجر.

- قبل الفجر.

***

أشار بالعصا المعدنية.. مرتفع جوي من الغرب ومرتفع جوي من الشرق البعيد ونحن الشطيرة. وبسبب هذين المرتفعين، سيختفي الهبوب الصحراوي فيتلطف الجو علينا.

ابتسم المذيع واقترب من الخريطة الثانية.

***

ومضات الشفرة...

- اتفقنا مع الكتلة الأخرى.. الموعد منتصف الليلة.. أدرستم دوركم في الهجوم الكبير؟

- ليس دورنا بسيطًا.. خبرتنا وتاريخنا أعمق.. سنزلزلهم بالورق.. بالصور.. واللحم الأشقر.

- منتصف الليلة.. الانطلاق.

- أوكي.

- أوكي.

***

نظر المذيع إلى الخريطة الثانية.. اتسعت ابتسامته. نظر إلى الكاميرا مطمئنًا ليطمئن المشاهدين..

- الشمس ستشرق دافئة. لا سحاب. لا غيوم. لا أمطار. لا رطوبة. لا خماسين.. مدهش.. صباح الغد مدهش.. (فانتاستيك).

***

الومضات الشفريّة من الكرة الباردة تأمر.. جميع القواعد تستعد.. تشحذ الأسلحة.. الاستوديوهات.. شبكات الإرسال المرئيّة والمسموعة.. المطابع.. المجامع.. اللحم الأشقر.. المساحيق.. الكيماويات.. الشركات.. الجامعات.. الإرساليات.. المعابد.

***

أزت الأغطية الحديدية وانفتحت عن الصوامع.. صوامع القاذفات.. عن منتجات مغريات.. القمر السري البارد هدأ إلا من إشارة أوكي.. أوكي.. أوكي.

***

عند الخريطة الثالثة.. قال المذيع المطمئن:

- سيداتي آنساتي سادتي.. غدًا.. الطقس ربيع والجو بديع (وقفل لي على كل المواضيع) وتصبحون على خير.

تاريخ كتابة ونشر قصص مجموعة «بكّات الدم»

تواريخ القصص كتابة ونشرًا:

يوم بكيتك يا فاروق: مجلة القصة القاهرية، العدد 50 أكتوبر 1986.

الموت كلبًا: مجلة إبداع، العدد التاسع، السنة الرابعة، سبتمبر 1986، نشرت باسم (موت).

الخَرَس: مجلة إبداع، العدد الرابع، السنة الرابعة، إبريل 1986.

الهرم المقلوب: كُتبت في 1985، نشرت بمجلة البيان الكويتية، العدد 248، نوفمبر 1986.

شالوم.. هيء: مجلة القصة السكندرية، العدد 35، عام 1983.

بكّات الدم: مجلة إبداع، العدد السابع، يوليو 1989.

شارة الحِداد: مجلة إبداع، العدد السابع، يوليو 1988.

تقازم: مجلة إبداع، 1989.

كابوس التمساح وبرج السواد: كتبت في 2 /7/ 1986.